الكسندر بوشكين

القصائد الشرقية



ترجمة وتقديم

د. طارق مردود



القصائد الشرقية



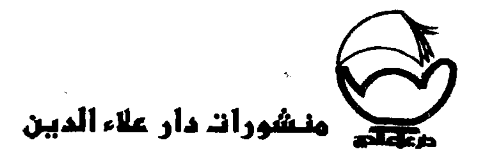
ألكسندر بوشكين

القصائد الشرقية

ترجمة وتقديم:

د. طارق مردود

عن الروسية مباشرة



منشورات دار علاء الدين

دمشق – الطبعة الأولى ١٩٩٩

١٠٠٠ نسخة

التنضيد الضوئي: دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

الإخراج الفني: هيفاء الرفاعي

يطلب الكتاب على العنوان التالي :

دمشق ص.ب – ٣٠٥٩٨

هاتف : ٢٣١٧١٥٨ – ٥٦١٧٠٧١

فاكس : ٥٦١٣٢٤١ – ٢٣١٧١٥٩

- جميع الأفكار والآراء الواردة في الكتاب تُعبر عن وجهة نظر المؤلف.
- في حال أخذ أية مادة من الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر.

هذه المجموعة

"أهم خاصية لأدب بوشكين هي عالميته" : هذا ما يقرره ج. ماكوجونينكو – الكاتب الروسي المعاصر في مقدمته لأعمال بوشكين المختارة (موسكو – ١٩٧٨). وقد ظهرت هذه الخاصية بأشكال مختلفة أكثرها بروزاً مقدرته المدهشة على فهم وتقمص روح الشعوب المختلفة وبراعته في معالجة المشاكل الإنسانية من موقع الخبرة الوطنية وحسب المتطلبات والشروط التاريخية.

كان عالم بوشكين ليس فقط روسياً فقد تعرف منذ صباه على الشعراء القدامى: حفَّزه شكسبير على البحث عن طريقة لإنشاء مسرح شعبي، انجذب إلى أشعار بايرون الكئيبة، اكتشف فولتير وانجذب لأشعار شينييه، قرأ كل نظم لجوته وقدَّر عالياً الشاعر الفارسي سعدي شيرازي. سحره أيضاً القرآن الكريم بتعابيره ومعانيه وقصصه فترجم بعض آياته.

كتب ديستوفسكي عن "مقدرة بوشكين على الاستجابة العالمية" فتبيَّن أن : "بوشكين وحده من بين كل شعراء العالم يملك خاصية

التقمص كلياً في قومية غريبة، هاهي "الفـــارس البخيـل" والأغنيـة الشعبية "عاش في الدنيا فارس فقير"، اقرأ "دون جواب فلو لــم يكـن هناك توقيع بوشكين لما عرفتم أبداً أن من كتب هذه ليس إسبانياً. أيـة نماذج عميقة رائعة في قصيدة "وليمة في زمن الطاعون"، ألا تســمع في هذه النماذج الرائعة العبقرية الإنكليزية ......، هذه "قبســات مـن القرآن" أليس هناك مسلم، أليست هي نفس روح القرآن وسيفه، ومهابة العقائد البسيطة وقوتها العنيفة الدموية ... ؟ أقول على الإطلاق، أبـداً لم يوجد شاعر يمثل هذه الإستجابة العالمية مثل بوشكين، وليس فـي الاستجابة وحدها يكمن الأمر وإنما في عمقها المدهش، فـي تقمـص روحه في روح الشعوب الغريبة تقمصاً كاملاً تقريباً، فـي روعتـها، لأنه ليس في أي مكان ولدى كل شعراء العالم لم تتكرر مثـل هـذه الظاهرة" .

وفي هذه المجموعة نقدم قصائده ومؤلفاته الشعرية التـي يتحـدث فيها عن الشرق والشعوب الشرقية أو يقتبسها مـن ثقافـات الشـرق وعقائده، وسندهش كم هي غنية ومتنوعـة. فـها هـو يقتبـس مـن الشاعرين سعدي وحافظ شيرازي ويكتب قصيدة عن الأول ويدعـوه "فصيح الشرق"، كما يترجم معاني العشرات من الآيات القرآنية بعـد أن اطلع على ترجمة له، ومن واقع زياراته وإقامته يكتب عن القوقـاز والقرم ويختار من قصص وحكايات شعوبها فيكتبها شعراً. كما يكتب أيضاً عن معاناة "اسطمبول" من الجنود الإنكشاريين ومفاتن "كليوباترا"

وإغوائها وعن "الغجر" المترحلين في السهوب.

ذلك هو الشرق عند بوشكين:

تلك البلاد العجيبة

حيث الرجال شعث قساة

والنساء مثل الحوريات



أدب بوشكين وحياته

منذ حوالي قرنين من الزمان أهدى الشعب الروسي للعالم نبـــوغ بوشكين الساطع، الذي اعتبره أحد الأدباء الروس "هدية مقدسة " وقـد ظهر إبداع بوشكين كمرحلة جديدة في المعرفة الفنية للحياة وســببت أعماله الازدهار العارم للأدب الروسي في القرن التاسع عشر. كــل الأدباء الروس المشهورين جاءوا بعده: جوجول كان تلميـذه وكذلـك دوستوفسكي، تشيخوف وتولستوي تأثرا به. أما الشعراء فقد أصبحـوا يوزنون به. وحتى من سبقه منهم أو من كان استاذه: "جوكوفســكي " فقد أصبح ينسب إلى عصره.

لقد كان العالم الغني الذي أبدعه بوشــكين كبـيراً وغنيـاً. كتـب بوشكين عن كل شيء تقريباً ، عن الشنيع والجميـل، عـن المعـذَّب والمخجل في الحياة، أخبر بكل شــيء عــن نفســه: عــن مســراته وإنجازاته، عن شكوكه ونزواته، عن حبه ومعاناته النفسية. كان عـالم بوشكين الشاعر ضخماً وكان كل شيء أداة لشعره. وقــد أصــاخت موهبة بوشكين الشعرية تدوِي الأحداث التاريخية والتقطت حركــات

القلب الخافتة. تعاطف مع كل شيء يدخل في خصوصية الحياة واستجاب لكل ما هو جميل في الطبيعة.

احتل بوشكين مكانة عظيمة لدى الشعب الروسي في كل العصور. يقول أحد الأدباء الروس المعاصرين:" يرافقنا بوشكين طيلة العمر، يدخل في وعينا منذ الطفولة الأولى آسراً قلب الطفل بالحكايات الرائعة..... وفي الشباب يأتينا عبر المدرسة، يحرك فينا السعي للمعالي ومحبة "الحرية المقدسة" والرغبة العارمة بتخصيص الوطن بـ "انفعالات النفس الرائعة"، ثم تأتي سنوات النضج فنتعامل مع بوشكين بأنفسنا دون وسطاء، بدافع العقل والقلب، وعندها نكتشف بوشكيننا الخاص، حب بوشكين للطبيعة أصبح منذ زمن حبنا أيضاً، فَتَننا وصفه للشتاء الروسي، نقرأ بفهم ما كتبه عن الجنوب القائظ، عن البحر الأسود الذي كان حبيباً للشاعر، جبال القوقاز المهيبة وسهوب مولدافيا الكئيبة، نردد بفخر بين أنفسنا أشعاره عن موسكو وبيتربورغ..... عزيزٌ علينا في بوشكين حبه للتاريخ الروسي وللانتصارات الغنية للشعب."

إلا أن عالم بوشكين لم يكن فقط روسياً، فقد تعرف على ثقافات العالم وكتب عنها بل وترجم بعضها، واهتم ليس فقط بالتاريخ الروسي وإنما أخذ يدرس أيضاً تاريخ الثورة الفرنسية، وسحرته ليس فقط الطبيعة الروسية وإنما أيضاً طبيعة القوقاز الوحشية وسهوب الجنوب الشاسعة. وقد وصف كل ذلك في شعره.

ولد بوشكين عام ١٧٩٩ في عائلة نبيلة، وما أن بلغ الثانية عشرة من عمره حتى أُدخل إلى مدرسة "الليسية" التي افتتحت في القرية القيصرية قرب لينينغراد (سميت حالياً مدينة بوشكين) والتي لا يدخلها إلا أبناء النبلاء. وبعد أن تخرج منها أرسل في عام ١٨١٧ للعمل في مجموعة الشؤون الخارجية، وهناك انتسب إلى إحدى الجماعات الأدبية السرية وأخذ يكتب أشعار سياسية فنفاه القيصر إلى الجنوب للعمل مع الجيش الروسي الذي يحارب في القوقاز وقد امتد نفيه الجنوبي أربعة أعوام وعدة أشهر في القوقاز وثلاث سنوات في مولدافيا وسنة في أوديسا والقرم حيث كان يسكن فرع من التتار. في هذه الفترة اختلط بالعديد من الشعوب وخاصة شعوب القوقار: الشركس والشاشان، وشعوب مولدافيا ومنهم الغجر.

بعد ذلك تحول المنفى من الجنوب إلى الشمال في القرية التي يملكها والده وتحت رقابته، وبعد أن تخلص من هذه الرقابة استطاع خلال سنتين أن يبدع الكثير وأن يكمل بعض ما بدأه في الجنوب، لكن سرعان ما استدعاه القيصر للتحقيق معه في علاقته بالثوار الديكابريين. وما أن تمت تبرئته من تهمة المشاركة في الثورة، مع أنه كان صديقاً لكثير من الثوار القائمين بها حتى حصل على حريته ولكن قيصر أقام نفسه رقيباً على إنتاجه. هنا تزوج بوشكين وتمكن بعد جهد من إصدار صحيفة "العصري" ونشر الكثير من إنتاجه بعد إدخال التعديلات التي طلبها الرقيب "القيصر". لكن المضايقات ظلت تلاحقه

خاصة من حاشية القيصر، وقد كان لغَنَج زوجتـــــه الأثـــر الســـيء، فاضطر في النهاية أن يطلب مبارزة أحد الأجانب الذي يثير الشائعات عنها ويلاحقها. وكانت بنتيجة المبارزة إصابته إصابة بليغة، وبعد يوم من المعاناة لفظ الشاعر الكبير أنفاسه بين عائلته وأصدقائه وجمـــهور كبير من عامة الناس تجمعوا عند باب بيته.

كان العصر الذي ولد فيه بوشكين وترعرع عصر أحداث جسيمة. عندها ما زالت تتردد أصداء ثورة الفلاحين التي قادها بوجا تشـــوف الفلاح. وعندما كان عمره ١٤ عاماً دخل نابليون وجيشــــــه موســكو المحترقة، وعندما كان في مدرسة الليســـية عـــادت كتـــائب الجيـــش الروسي بعد انتصارها على الجيش الفرنسي ودخولها بـــــاريس مـــع الجيوش الأوربية الأخرى. وعندما كان في المنفى الشـــمالي قـــامت ثورة الديكابريين التي كان نتيجة فشلها إعدام عدد من أفضل أصدقـــاء بوشكين وإرسال الكثيرين إلى سيبيريا، في الوقت الذي كانت تســـتعر فيه الحرب الروسية التركية، فقد احتل الروس القرم وكان بوشكين مع الجيش الروسي عندما دخل مدينة أرضروم التركية.

تفتحت موهبة بوشكين الشعرية مبكراً، كتب أولى قصائده عندمـــا كان عمره ١٤ عاماً ونشرت له الصحافة الروسية في العـــام التـــالي أولى قصائده، وعندما تقدم للفحص النهائي في المدرسة ألقى قصيـــدة أمام لجنة الامتحان التي كان أحد أعضائها الشاعر الروسي المشـــهور آنذاك "درجافين". بالإضافة لما تعطيه المدرسة قرأ كثيراً وباهتمام، أو

فجأة يختطفه الولع الشعري:

فجأة استضاءت صومعتي المدرسية

فتَّقت فيها موزا*

ريشة الشباب العبقرية

تغنَّت بفرح الأطفال

وأمجاد عهودنا الغابرة

وأحلام قلوبنا الخافقة.

كان نبوغ بوشكين المبكر كبيراً ورائعاً، وكانت قصائده الأولى متفقة وعميقة المعاني. لقد تفتحت موهبته بسخاء عجيب جعل شعراء عصره يرون في هذا الفتى الذي دخل لتوه حلبة الشعر شاعراً عظيماً، بل عملاق المستقبل كما صرح أحدهم. تأثر في البداية برومانسية جوكوفسكي فامتلأ شعره بالحزن العميق وأخذ يكتب مثله مراثي ورسائل للأصدقاء ويتحدث عن " أحزان الحب البائس" ويجد في الدموع والحسرة "لذة مرة" فوصفته الصحافة بـ "مغني الحب"، مغني حزنه":

أحلام، يا أحلام

أين حلاوتك ؟

---

* موزا: آلهة الشعراء والفن عند الإغريق

أين أنت، أين أنت

أيتها الفرحة الليلية؟

لقد اختفى

النوم الهنيء

وأنا مستيقظٌ

وحيدٌ

في الظلمة العميقة

حولي مراقد

الليلة الخرساء.

بلحظةٍ بَرَدت

بلحظة طارت

حشداً للبعيد

أحلام الحب.

وبعد تخرجه من المدرسة وانتقاله إلـــى لينينغـــراد للعمـــل فـــي "مجموعة الشؤون الخارجية ابتدأت اهتماماته السياسية وأخـــذ يكتـــب قصائد يتحدث فيها عن الحب والحرية والصداقة. وقد انتشرت أشعاره السياسية وتناقلها الناس حتى وصلت إلى السلطات فنفاه القيصر إلـــى مستعمرات روسيا الجنوبية لمدة أكثر من ست سنوات. كان بوشـــكين

عندها قد اختط لنفسه طريقاً خاصة في الشعر وأصبح شاعراً معترفاً به وأثارت قصته الشعرية "روسلان ولودميلا" جدلاً في الأوساط الأدبية بسبب الأساليب الجديدة التي اتبعها في كتابتها: الصراحة الساخرة للكاتب والإفصاح الجريء عن المشاعر واستعمال الحديث البسيط. ومع هذا فإن هذا العمل لم يعجبه كثيراً، فقد أراد أن يصنع بطله الفريد، وقد ساعدته على ذلك طبيعة القوقاز ذات الجمال الطبيعي الأخاذ:

هنا تمشي السحب بدلالٍ أسفل مني

ومن خلالها متفجرةً تهدر الشلالات

وتحتها جلاميد الأجراف العارية

هناك تحت الطحلب الهزيل شجيرة جافة

وهناك أيضاً أدغالٌ وظلالٌ خضراء

حيث تزقزق الطيور وتتواثب الأيائل

هنا كتب القصة الشعرية "أسير القوقاز" التي تحدث فيها عن بطله الفريد وعن شعوب القوقاز:

في القرية على أعتابهم

يجلس الشركس خاملين.

أبناء القوقاز يتحدثون

عن القلاقل الحربية المهلكة

عن جمال خيولهم

وعن هناء النعيم البري

يتذكرون الأيام الخالية

والغزوات الماحقة

حيل الأمراء المخادعين

وضربات سيوفهم الظالمة

دقة رمايتهم التي لا تخيب

ورماد القرى المدمرة

ولطف السبيات سوداوات العيون

وفي مولدافيا يقضي عدة أيام مع إحدى قبائل الغجر في سهوب بيسارابيا ويكتب عنهم قصة شعرية:

يترحَّل الغجر عبر بيسارابيا

بحشودٍ صاخبة

يقضون الليل هذا اليوم عند النهر

في خيام ممزقة

كالحرية مبيتهم مبهج

ومطمئن نومهم تحت السماوات

كثيراً ما تسكعت في البراري

خلف حشودهم المتكاسلة

قاسمتهم طعامهم البسيط

وغفوت أمام نيرانهم

وفي القرم يكتب عن نافورة الدموع في (بقجة سراي) التي بناها خان القرم (كريم جيراي) الذكرى سبيته البولونية الأميرة (ماريا) التي قتلتها زوجته (زريمة) يكتب في قصيدة وقصة شعرية:

نافورة الحب ، يا نافورةً حية

أحضرت لكِ هدية وردتين

أحب حديثك الصاخب

ودموعك الشاعرية

غبارك الفضي

يرشني بندىً بارد

آه، تدفق، تدفق أيها النبع الممتع!

بخريرك إحكِ لي حكايتك ......

* * * *

نافورة الحب، نافورة حزينة!

لقد ساءلت مرمرك:

قرأت مديح البلاد البعيدة

ولكنك عن ماريا قد صمتٌ

وفي أوديسا يهجو المحافظ الذي ضايقه كثيراً:

نصف سيد، نصف سيد، نصف تاجر

نصف شجاع، نصف جاهل

نصف لئيم، ولكن هناك أمل

في أن يصبح كاملاً في النهاية

وعندما ينتقل منفاه إلى الشمال يكمل الكثير مما بدأ كتابته في الجنوب ومنها الرواية الشعرية الطويلة "يفجيني أوينجين" التي بقيت للأسف غير مكتملة ولكنها مع ذلك تعتبر من عيون الأدب الروسي. هنا يكتب الكثير من القصائد وخاصة العاطفية المليئة بشعور السعادة، لعلها سعادة الحب:

هل ستحفظ روحي

الصورة الخالدة؟

هل عرفت سعادة الحب

أ أقاسي طول الضنى

وأسكب دمعي في صمت؟

أين كانت تلك التي عيونها

كالسماء ابتسمت لي

أكلُّ الحياة ليلةُ، ليلتان! . . .

خلال عامين من إقامته في منفاه الجديد كتب بوشكين أكثر من سبعين قصيدة وقصة شعرية وملحمة عدا إكماله للقصة الشعرية "الغجر" وكتابته لأربعة فصول من الرواية الشعرية "يفجيني أونيجين". ومن أشهر هذه القصائد قصيدة "النبي" التي اعتبر فيها أن رسالة الشاعر مثل رسالة الأنبياء، يقول في آخرها:

أرسل الرب صوتاً إلي:

"إنهض يابني، انظر واستمع

نفّذ إرادتي

وعابراً البحار والأرض

ألهب بصوتك قلوب الناس"

وما أن تنتهي سنوات النفي وينال حريته حتى ينطلق إلى الريف ليستطيع الكتابة بعيداً عن القيصر والسلطة. كتب يقول:

متى ترى يتركونني على حريتي

كيف لو برشاقة هبطت

إلى الغابة المعتمة !

لكنت غنَّيت في خيالٍ لاهبٍ

لكنت انغمست في ديمة أحلامٍ

غريبة عجيبة

ولكنت استمعت للأمواج

ولكنت نظرت، مليئاً بالسعادة،

في السماء الصافية

ولكنت قوياً حراً

مثل عاصفة تحفر الحقول

وتحطم الأشجار

وقد كثرت في السنوات الأخيرة كتاباته النثرية، فكتب العديد من القصص وحكايا للأطفال، كما أنه كتب عدداً من المسرحيات الشعرية إلا أنها لم تلقَ نجاحاً كبيراً.

لكن المضايقات تكثر من القيصر وحاشيته، وازداد ذلك بعد زواجه فيكتب وكأنه يتنبأ بما سيحصل:

لكن لا أريد يا أصدقائي أن أموت

أريد أن أحيا كي أفكر وأعاني

وأرى، أتكون ليَ السعادة

بين المشاغل والقلق والأحزان.

هل حان الوقت ثانية لأعزف لحناً

وأذرف الدمع على أحلامي

فقد يبرق الحب ببسمة وداع

على غروبي الحزين

وقد انتهت حياة هذا الشاعر قبل أن يكمل عامه الثامن والثلاثين تاركاً الكثير من إنتاجه غير مكتمل. وعلى الرغم من ذلك فقد احتل مكانة متميزة بين شعراء زمانه منذ البداية ثم أصبح أعظم شاعر روسي حتى الآن.

كتب جوجول يتذكر: "لم يحصل أي شاعر في روسيا على مثل هذه المكانة التي يحسد عليها مثل بوشكين، ولم تنتشر أية كلمة بسرعة هكذا. كان لدرجة ما معبود الشباب، استذكروا وأعادوا تصرفاته الجريئة والمنفذة دائماً بشكلٍ غير مألوف، وحوادثَ حياته، واستظهروا أشعاره. المدنيون والعسكريون، بمناسبة ودون مناسبة اعتبروا واجباً إلقاء أو تمثيل شيء من مقاطع شعره اللامعة. احتوى اسمه على شيءٍ ما كهربي".

أما أوستروفسكي فيقول: "الكنوز التي أهدانا إياها بوشكين كانت حقاً عظيمة ولا تقدر بثمن. أول فضل للشاعر العظيم أنه من خلاله يصبح كل شيء عاقلاً إذا كان قابلاً لذلك عدا المتعة، عدا أشكال التعبير عن الأفكار والمشاعر يعطي الشاعر أيضاً أعظم الصيغ

للأفكار والمشاعر. النتائج الغنية لأكثر المخابر ذكاءً وكمالاً تصبح في متناول الجميع. الموهبة الأدبية العالية تنسحب وتساوي نفسها بالجميع".

وقد تبدَّت في شعر بوشكين الوجداني قبل كل شيء، فكرة بوشكين المثالية عن الإنسان الفاضل. أول من فهم ذلك بيلينسكي - الأديب المعاصر لبوشكين - فكتب يقول : "اللون العام لشعر بوشكين وخاصةً الوجداني هو الجمال الداخلي للإنسان......

في هذا المجال، قارئين إبداعاته - يمكن أن نربي في نفسنا مثالاً رائعاً للإنسان". كما كتب جوجول عن اكتشاف بوشكين لمثال الروسي عن الإنسان الفاضل: "فيه الطبيعة الروسية، الروح الروسية، اللغة الروسية، السجية الروسية انعكست كلها في ذلك النقاء، في ذلك الجمال المصفّى الذي ينعكس فيه المنظر كما على السطح الناتئ لزجاج النظارة ...... كان منذ بدايته وطنياً لأن الوطنية الحقيقية ليست في وصف السارافان* وإنما في صميم روح الشعب".

قبل موته كتب بوشكين قصيدة نعيٍ له لم تنتشر في حياته:

أقمت بيدي نصباً ليس بيدي

لا تلتقي فيه سبل البشر

---

* السارافان: اللباس الوطني الروسي للنساء

متعالياً برأسه الشامخة

أعلى من نصب الإسكندر

* * * *

لا، لن أموت كلي، روحي في قيثار أليف

ستحيي رفاتي وتمنع انحلالي

وسأكون مجيداً طالما تحت القمر

بقي حياً ولو شاعرٌ واحد.



القصائد

قبسات عربية

كتبها بوشكين عام ١٨٣٥ متأثراً بقول الشاعر الفارسي سعدي شيرازي (القرن الثالث عشر ميلادي):

"أنا وصديقي عشنا كأنا
جوزتان في قشرة واحدة".

❋ قبسات عربية ❋

فتاي العزيز، فتايَ اللطيف

لا تخجلْ، أنت لي أبداً

ذاك فينا نار مضطرمة

نحيا العمر وحيدين.

❋ ❋ ❋ ❋

لست أخشى السخرية

فقد تضاعفنا بأنفسنا

نحن بالضبط جوزة مزدوجة

ضمن قشرة واحدة.



قبسات من القرآن

مجموعة قصائد ترجم فيها بوشكين عدداً من الآيات القرآنية ترجمة حرة، وقد كتبها في بداية نفيه إلى الريف الروسي عام ١٨٢٤، ووجد فيها أمثلة وعبارات ناسبت نفسيته والظلم الواقع عليه من القيصر والمجتمع الارستقراطي في ذلك الوقت. وهذا واضح من الآيات التي اختارها. أهدى القصائد لجارته في المنفى (ب. أ. أو سيبوفا) التي لجأ إلى عائلتها هرباً من رقابة والده.

❋ قبسات من القرآن ❋

مهداة إلى: ب أ. أوسيبوفا

- ١ -

أقسم بالشفع والوتر

أقسم بالسيف وبالحرب المحقّة

أقسم بنجمة الصباح

أقسم بصلاة المساء

❋ ❋ ❋ ❋

لا، أنا لم أهجركَ

من ترى في ظل الطمأنينة

أدخلت، محباً شخصه،

وحميت من العسف المبين؟
ألست أنا يوم السغبِ
من سقاك مياهاً صحراوية؟
ألست من أعطى لسانك
سلطاناً عظيماً على العقول؟

* * * *

تشجع واهجر الباطل
اتبع بشجاعةٍ طريق الحق
احب اليتامى وقرآني
عظ مرتعشاً الخلق.

- ٣ -

يا نساء النبي الطاهرات
أنتن عن كل النساء مميزات
شديد عليكن ظل النقيصة
في الظل الجميل للسكينة
عشن بتواضع: فرضٌ عليكن
أيتها العذارى الحجَّاب.

احفظن القلوب الأمينة
جديرات بالحنان محتشمات
كي لا تلامس وجوهكن
نظرات الأرذال الماكرة!

* * * *

وأنتم يا ضيوف محمد
متقاطرين إلى أماسيه
احترسوا ألا تكدر
بمارج الدنيا نبيي
في الشباب أفكار تقىً
هو لا يحب المتبهرجين
ولا كلام المتكبرين والفارغين:
شرفوا مأدبته بخضوعٍ
وبعطفٍ عفيفٍ
جواريه الفتيات.

- ٣ -

متكدراً تجهم النبي

مستمعاً للضرير عن قرب:

تولَّيتَ، وهو لم يقرب رذيله

إن هذا ليجعله بحيرة.

* * * *

أُعطيتَ من الكتاب السماوي

يا نبي سجلاً، وليس للمتمردين.

أقم القرآن في سكونٍ

غير داعٍ الكافرين

* * * *

لأي شيءٍ ترى يتكبر الإنسان؟

ألأنه عارٍ على الدنيا ظهر

أم لأنه تنسم الهواء حيناً

أم لأنه يموت ضعيفاً، كما أنه ضعيف ولد؟

* * * *

هل لأن الله يميته

ثم يبعثه بإرادته؟

أم لأن السماء تحفظ أيامه

سواءً في الأفراح أم في الزمن العصيب؟

* * * *

هل لأنه منحه الثمار

والقمح والتمر والزيتون،

مباركاً أعماله،

والحدائق والتلال والحقول؟

* * * *

لكن الملاك ينفخ في البوق مرتين،

فيدوّي على الأرض رعد السماء:

فيهرب الأخ من أخيه

ويتبرأ الابن من أمه

* * * *

كل شيء أمام الله يحضر

مشدوهاً بالرعب

ويتهاوى الكافرون

يلفهم الغبار واللهب

- ٤ -

قديماً، يا قدير، توهم

جبارٌ أن يباريك

بجنونٍ، مليئاً بالغرور،

ولكنك يارب طوّعته

أنتَ قلتَ: أنا أهب الدنيا الحياة

وأعاقب الأرض بالموت

علىالجميع راحتي مرفوعة

أنا كذلك، قال هو ، أمنح الحياة

وأعاقب بالموت أيضاً:

معك يا رب أنا متساوٍ.

ولكن انطفأ زهو العار

من كلمات غضبك:

أنا أرفع الشمس من المشرق

من المغرب فلترفعها أنت!

– ٥ –

الأرض ثابتةٌ، السماء أقبيةٌ،

يا مبدعُ ممسوكاتٌ بك،

فلا تهوي على اليابسة والحياة

ولا تهرسنا.

* * * *

أوقدتَ أنت الشمس في الكون

لتنير السماء والأرض،

كزيت الكتان مملوءاً

ينير في بللورة القنديل.

✸ ✸ ✸ ✸

صلّوا للمبدع، فهوقادر:

يصلح بالريح، في اليوم القائظ

يرسل على السماء السحاب

يهب الأرض ظلاً شجرياً

✸ ✸ ✸ ✸

هو رحيمٌ: لمحمدٍ

كشف القرآن المنير.

كذا نرد نحن إلى الدنيا

وكذا ينهمر من المقلة الضباب

- ٦ -

ليس عبثاً أنكم ظهرتم في الحلم لي

برؤوسٍ حليقةٍ في المعركة

وسيوفٍ مدمّاة

في الأسمال، على القلاع، على الأسوار

* * * *

انْصِتوا للنداء السعيد

يا أبناء الصحراء الملتهبة

ترون في الأسر جوارٍ فتيات،

اقتسموا غنيمة الحرب.

أنتم انتصرتم: المجد لكم

وللجبناء الهزء!

هم على نداء الجهاد لم ينفروا

غير مصدقين الرؤى العجيبة

* * * *

مفتونين بالغنائم الحربية

بعد ذلك في ندمهم

يقولون: خذونا معكم

ولكنكم قولوا: لا نأخذ

* * * *

سعداءٌ الذين سقطوا في المعركة
دخلوا بعد ذلك في عدن
وغرقوا في النعيم
غير مكدّرين بشيء.

- ٧ -

انهض أيها الوجل:
في كهفك
المصباح المقدس
يشتعل في الصباح
بصلاةٍ قلبية
أبعد أيها النبي
الأفكار الحزينة
والأحلام الخبيثة!
بتواضع حتى الصباح
أقم الصلاة
واتل الكتاب السماوي
حتى الصباح!

- ٨ -

مساوماً بضميرك أمام الأعمى الفقير

لا تنثر هداياك بأيدٍ حريصة:

فالكرم صفوٌ كامل للسماوات

في يوم الحساب العسير، مثل حقل خصيب

يا باذراً موفقاً!

سيكافىء بالخير العميم جهودك

ولكن إذا ما انقضت هديتك الحاسدة

متأسفاً على مكاسب الأعمال الدنيوية

معطياً للفقير صدقة بخيلة-

فلتعلم : كل أعطياتك مثل حفنات من تراب

تغسل عن الصخور بوابل

وتختفي - صدقةً مرفوضةً من الرب

- ٩ -

مسافرٌ تعب إلى ربه ابتهل:

عطشاً أُنهك وظلالاً أمِل

تائهاً ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ

قيضاً وغباراً أثقلت عيونه
بكآبة طاف منةالجوار بلا أمل
يرى فجأة بئراً تحت نخلة

* * * *

متشوقاً ركض إلى النخلة الصحراوية
وبنهم أنعش بتيار بارد
عينيه ولسانه الملتهبة
واستلقى ثم غفا قرب أتانه المخلصة
وانقضت عليه سنون عديدة
بإرادة مالك السماوات والأرض

* * * *

حانت ساعة إيقاظ المسافر
ينهض فيسمع صوتاً خفياً:
"طويلاً ترى غفوت في الصحراء بعمق؟"
فيجيب: ها هي الشمس عالية
سطعت من سماء الصباح البارحة
منذ الصباح استغرقت في النوم حتى الصباح
لكن الصوت:" يا مسافر، نمت أطول

أنظر: نمت شاباً وهاقد صرت شيخاً
النخلة فنت، والبئر البارد
نضب وجف في صحراء مجدبة
وردمته رمال السهوب من زمن
وابيضَّت عظام أتانك".

* * * *

مأخوذاً بالرعب المفاجئ ها هو الشيخ
منتحباً، هازاً رأسه ظهر ......
وعندها تحققت في الصحراء معجزة:
عاد الماضي للحياة في لون جديد
من جديد تنشر النخلة رأساً ظليلاً
من جديد يمتلئ البئر برداً وسديماً

* * * *

وتنهض عظام الأتان البالية
وتكتس لحماً وتنهق
ويشعر الشيخ قوة وسعادة
جرى في عروقه الشباب المنبعث
ملأت البهجة المقدسة الصدر:
وفي أمان الله ينطلق في الطريق بعيداً

ملاحظات بوشكين:

١- (على مجموعة القصائد): في سورة الأنعام في القـرآن: " ... يقول الذين كفروا إن هذه إلا أساطير الأولين"[1]. وأتي أولئك الكافرين بالطبع الصحيح، لكنه بالرغم من هذا فإن كثيراً من الحقائق الأخلاقيـة ترد من القرآن بأسلوب قوي وشاعري. وهنا أقدم عدة اقتباسات حرّة. في الأصل دائماً الله يتحدث عن نفسه، أما عن محمد فيذكره بصيغـة المخاطب أو الغائب.

٢- (القصيدة ١- المقطع الأول): في أماكن أخرى من القرآن يقسم الله بحوافر الخيل وثمار التين ، ومكة المحـررة، وبـالمعروف

---

[1] آخر الآية ٢٥ من سورة الأنعام. والترجمة الروسية فيها بالإضافة بأن "الذين كفـروا يقولون إن القرآن ليس إلا بمجموعة أكاذيب جديدة ...." ومثل هذا المعـنى غـير موجود في القرآن ومن المعروف الآن أن الترجمة التي اطلع عليها بوشكين للقـرآن الكريم كانت سيئة وتمت عبر ترجمة فرنسية غير جيدة وفيها أخطاء كثيرة (حوليـه نحن والعرب – ١٩٨٨، مقالة غرياز نيفيتش القرآن في روسـيا، ص ١٦٩. دارل التقدم – موسكو)

والمنكر، وبالملائكة والناس وغيرها.......

هذه الأضداد البلاغية الغريبة تصادف من القرآن دائماً[٢]

٣- القصيدة ٢- المقطع الثاني: "يا نبي، يضيفه الله، هذا القول ليس لك، لأنك حذر جداً ومتواضع، ولكنني لا أجد ضرورة للجدال معك .... إلخ[٣]. وهكذا فإن غيرة العربي تفوح _من هذه الوصايا.

٤- القصيدة ٣ - المقطع الأول - البيت الثاني: من سورة الأعمى[٤]

٥- القصيدة آخر المقطع الأول: فيزياء سيئة، ولكنها رغم ذلك شاعرية شجاعة.!

ملاحظات المترجم **: الآيات المقابلة في معانيها للقصائد**

القصيدة ١: المقطع الأول: مطلع سورة الفجر: "والفجر وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر."...

المقطع الثاني: مطلع سورة الضحى : "والضحى، والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى ..."

القصيدة ٢ :المقطع الأول : الآية ٣٢ - الأحزاب: "يا نساء النبي لستن كأحد من النساء"....

---

(٢) لقد اقسم الله بالخيل وليس بحوافرها ، وبايقين وليس بثماره، وبمكة قبل فتحها ... وهذاعائد لسوء الترجمة التي اطلع عليها بوشكين.

(٣) لم أجد آية في معنى هذا الكلام؟

(٤) يقصد سورة عبس: "عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى

المقطع الثاني: الآية ٣٥ - الأحزاب: "يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم .... إن ذلك كان يؤذي النبي فيستحي منكم"....

القصيدة ٣: المقطع الأول: مطلع سورة عبس: "عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يتزكى"..

المقطع الثالث: الآيات ١٧ وما بعدها من سورة عبس: "قتل الإنسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره، ثم السبيل يسره، ثم أماته فأقبره...... "

القصيدة ٤: الآية ٢٥٨ من سورة البقرة: "ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين."

القصيدة ٥: المقطع الأول: الآية: ١٠ من سورة لقمان" : خلق السماء بغيرعمد ترونها". والآية ٢ من سورة الرعد "الذي رفع السموات بغير عمد ترونها."

المقطع الثاني: الآية ٣٥ من سورة النور: "الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة بها مصباح والمصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة......

القصيدة ٦ :-المقطع الأول: الآية ٢٧ من سورة الفتح : "لقد صدق

الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله محلقيـــن رؤوسكم ومقصرين"......

القصيدة ٧: سورة المدثر: "يا أيُّها المدثر، قم فأنذر، وربك فكـــبر وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر".......

القصيدة ٨: الآية (٢٦٤) من سورة البقرة: "يا أيها الذين آمنـوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمـــن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركـــه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين."

القصيدة ٩: الآية (٢٥٩) من سورة البقرة: "أو كالذي مر علـــــى قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعـــد موتـها فاماته مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوم أو بعض يوم _قـال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظـــر إلـــى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظرإلى العظام كيف ننشرها ثم نكسـوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير."



النبي

كتبه عام ١٨٢٤ بعد معاقبة الثوار الديسمبر بين الذين ثاروا ضـــد القيصر ولكنه لم ينشرها إلا عام ١٨٣٦. تمثّل فيها بوشــكين رســالة الأنبياء الذين يتعذبون لكي يوصلوا أصواتهم إلى قلوب الناس . وأشار بعض الباحثين إلى أنها مستوحاة من قصة شق صدر الرسول محمـــد (ص) في صباه.

❋ النبي ❋

مضنىً بالظمأ الروحي

تعذبت في صحراء مدلهمة

ظهرَ لي عند مفترق الطرق

سداسي الأجنحة سيرا فيم

وبأصابع خفيفة كالحلم

لمس مقلتيّ:

تفتحت الأحداق النبوية

كما عند النسور الفزعة

لمس أذنيّ

وملأها ضجةً ورنيناً

فسمعت ارتجاج السماء

وطيران الملائكة العلوي

ومرور زواحف البحر تحت الماء

وتطاول الدوالي في حمول

التصق بشفتيّ

وانتزع لساني الخاطيءَ

الماكر الثرثار،

وأدخل بيمناه المدمّاة

ناب أفعى شجاع

في شفتيّ المتجمدتين

شق صدري بالسيف

وانتزع قلبي المختلج

وغرس إبرة محمّاة بالنار

في صدري المفتوح

ارتميت مثل جثة في الصحراء،

أرسل الرب صوتاً إلي:

"إنهض يا بني وانظر واستمع

نفذ إرادتي

وعابراً البحار والأرض

ألهب بصوتك قلوب الناس".

طلسم

قصيدة مؤرخة عام ١٨٢٦، إلا أنها تتحدث عن فترة وجود الشاعر في الجنوب حيث احتك بالمسلمين في القوقاز والقرم ويعبر فيها عن حنينه إلى وطنه.

❋ طلسم ❋

هناك حيث البحر دوماً ينطوي

فوق صخور الصحراء

حيث يشع البدر دفئاً

في أجمل وقتٍ من عتمة المساء

حيث يمضي المسلم الأيام

في الحريم منعَّماً

هناك سلمتني ساحرةٌ

بحنانٍ طلسما

❋ ❋ ❋ ❋

بحنانٍ أمرتني:

"احفظ طلسمي:

فيه قوة خفية!

يمنحك الحب، لكن

من الأمراض أو المنية،

في زوبعةٍ أو بلاءٍ مظلم

لن ينقذ رأسك

يا عزيزي طلسمي

* * * *

هو لن يهديك

كنوز الشرق

ولن يخضع أتباع النبي لك

وفي أحضان الأحبة

من بلاد الغربة الكئيبة

إلى أرض بلادك

من الجنوب إلى الشمال

طلسمي لن يحملك

* * * *

لكن إذا ما أعينٌ غادرات

فجأة قد فتنتك

أو في ظلمة الليل بلا حبٍ

شفاه قبلتك:

يا صديقي العزيز! من غدرٍ

من جراح قلبية جديدة

من خيانة، من هجرٍ

طلسمي سيحفظك."



سعدي

القصيدة بدون عنوان، كتبها الشاعر عام ١٨٢٨ ويتحدث فيها الشاعر الفارسي سعدي شيرازي (القرن ١٣ ميلادي) الذي يفترض أنه علش في جزيرة القرم التي حكمها في الوقت خانات التتر.

سعدي*

في البرودة اللذيذة للنوافير

والجدران المنتشرة في الجوار

تَصَادف للشاعر أن يرفه عن الخانات

بدرر الشعر المجلجلة.

* * * *

على خيوط الفرح الاحتفالي

نظم بيدٍ بارعة

قلادة المديح المكشوف

ومسبحة الحكمة الذهبية

* * * *

أحب القرم أبناءُ سعدي

---

* سعدي : الشاعر الفارسي سعدي شيرازي (القرن الثالث عشر الميلادي)

حيث أبدع هنا يوماً

فصيح الشرق دفاتره

وأدهش بقحجة سراي

* * * *

انتشرت حكاياه

مثل سجاجيد يريفان*

وقد زينتها بسطوع

أثقال ولائم الخان

* * * *

لكن ولا ساحر واحدٌ بارع

صاحب مواهب ذكية

قد ابتدع بهذه القوة

بمهارةٍ هكذا الحكايا والأشعار

* * * *

كشاعر فطنٍ ومأثور

من تلك النواحي العجيبة

حيث الرجال شعث قساة

والنساء مثل الحوريات

---

* يريفان: عاصمة جمهورية أرمينيا

اسطمبول

القصيدة بدون عنوان. وردت المقاطع الخمسة الأولى في مقالة نثرية تنتمي لأدب الرحلات بعنوان "رحلة إلى أرضروم" كتبها بوشكين عام ١٨٣٥ وتتحدث عن إحدى الحروب الروسية التركية التي كان بوشكين فيها مرافقاً للجيش الروسي في فترة نفيه إلى الجنوب وذلك عام ١٨٢٩ وكانت نتيجة الحرب استيلاء الجيش الروسي على المدينة التركية "أرضروم".

كتب بوشكين هذه القصيدة على لسان الجندي التركي الإنكشاري (أمين أو غلو)، إلا أن الباحثين في أدب بوشكين يقولون إن هذه الشخصية لا وجود لها، فإن الأشعار كتبها بوشكين بنفسه. ويؤكد آخرون أن المقصود بالسلطان في القصيدة هو قيصر روسيا وأن بوشكين تخفّى وراء شخصية (أمين أوغلو) لينجو من الرقابة.

المقطع السادس للقصيدة ورد في مجموعة أعمال بوشكين الصادرة في موسكو عام ١٩٨٥ - الجزء لثالث .

❋ اسطمبول ❋

على لسان الجندي الإنكشاري أمين أوغلو

سابقاً مجّد الكفار اسطمبول
لكنهم سيسحقونها غداً
بكعب حديدي مثل أفعى هاجعة
ويمضون جانباً، ويتركونها هكذا
نامت اسطمبول قبل الفاجعة

* * * *

تنكّرت اسطمبول للنبي:
فيه صدق الشرق القديم
عكّره الغرب الماكر
اسطمبول، لأجل ملذات الرذيلة
غيَّرت السيف والدعاء

تنكرت اسطمبول لعرق الجهاد

وأخذت تشرب الخمر في وقت الصلاة

* * * *

عندها خبا شعاع العقيدة الساطع

أصبحت النساء في الأسواق تمشي

ويتسكع الكهول في زوايا الشوارع

وتردد الرجال إلى الحريم

حيث ينام الطواشي المرتشي

* * * *

ولكن ليست هكذا أرضروم الجبلية

أرضرومنا الغالية جداً:

لا ننام نحن في رغد العار

ولا نغرف أكواب العصاة

في أثر الفساد ضجيجٌ ونار.

* * * *

نصوم نحن: وحدها النوافير

بتيارٍ منعشٍ تغنّي

فرساننا في المعركة يندفعون

بزخمٍ صاخبٍ ورشاقة
نحن على النساء ، مثل الصقور، غيورون
حريمنا ساكنٌ
يبقى بدون انتهاك

* * * *

الله أكبر!

إلينا من اسطمبول
جاء انكشاري متعسِّف -
عندها عصفت بنا في وهدةٍ زوبعة
وسقطت صاعقةٌ صماء
من روشوك* إلى سميرنا* العتيقة
من ترابزوند* إلى تولشي*
سار بحشدِ الجلادون
مستدعين الكلاب إلى العيد السمين
تداعت بيوت الإنكشاريين

---

* أسماء مدن في تركيا

مفرقعة في أحضان الحرائق

تراءت الأسنان المدمّاة

في كل مكان، اندكت الملاجئ

اسودّت الأموات المبهوتة

متلويّة على الأطواق

اللهٰ أكبر - عندها كان السلطان

شاملاً روح الطغيان



كليوباترا

وردت القصيدة في نهاية قصة نثرية كتبها بوشكين عام ١٨٣٥ بعنوان "الليالي المصرية" كبداية لمسرحية شعرية يؤلفها أحد أبطال القصة، وقد أعطيت هذا العنوان في مجموعة أعمال بوشكين الصادرة في موسكو عام ١٩٨٥ مع بعض التعديل في النظم ومؤرخه بعام ١٨٢٤ في الجزء الأول وبعام ١٨٣٥ في الجزء الثالث من نفس المجموعة.

وقد أوردنا هنا ترجمة جميع المقاطع بما في ذلك ما وجد في مسودات الشاعر مترجمة عن الجزء الثالث من المجموعة المذكورة سابقاً.

❋ كليوباترا ❋

تلألأ القصر، صدحت جوقات المغنين

على صوت الناي والقيثار

أحيت القيصرة بالصوت والنظرات

مأدبة "فاخرة"

هفت القلوب إلى عرشها

لكنها فجأة شردت

على الفنجان الذهبي بأفكارها

ونفذت لمصيرها برأسها البديع

❋ ❋ ❋ ❋

المأدبة الفاخرة كأنها حلم

الضيوف صامتون. تصمت الجوقة

ثم ترفع جبينها ثانية وتقول قولاً جلياً:

أفي حبي سعادة لكم ؟

السعادة يمكن شراؤها لكم.......

استمعوا إلي: أقدر أن

أقيم المساواة بيننا

من يتقدم للصفقة المشبوبة؟

أنا أبيع حبي

أخبروني: من منكم يشتري

ليلتي بحياته ثمناً ؟

* * * *

- قسماً ...... - يا أم الملذات

سأخدمك بلا مثيل

إلى فراش الإغواء الملتهب

سأصعد خادمة بسيطة

اسمعيني كبريدا[1] القديرة

وأنتم، ملوك تحت الأرض

يا آلهة عايدة[2] الرهيبة

أقسم - حتى الفجر الصباحي

---

[1] أحد أسماء الآلهة اليونانية (أفروديت)

[2] مملكة الظلام في الأساطير اليونانية

سأشبع بشهوانية

رغبات ملاّكي

وسأرهقهم بكل سرائر الحب

والملذات العجيبة

ولكن ما أن يلمع المعطف الصباحي

الأرجواني لأورور[1]_الخالدة

أقسم - تحت المقصلة المميتة

ستسقط رؤوس المحظوظين

* * * *

تحدثت، فشمل الرعب الجميع

وارتجفت من الهول القلوب......

وهي تنصت في تذمر حائرٍ

بوقاحةٍ باردة في محيَّاها

وتحيط بنظرة ازدراءٍ

أتباعها حولها.....

يخرج فجأة من الجمع واحدٌ

ومن إثره اثنان آخران

---

[1] آلهة الصباح في الأساطير اليونانية

جريئةٌ فعلتهم، عيونهم مفتوحة

ونهضت للقائهم

وهكذا فقد اشتُرِيَت ثلاث ليالٍ

وفراش الموت يدعوهم

* * * *

مباركةً بالكهَّان

أخيراً من أوعية القدر

خرجت قرعة الدور

أمام الضيوف الواجمين

أما الأول– فهو فلافي، جندي شجاع

قد شاب في الحرس الرومي

لم يستطع أن يصرف عن المرأة

نظرة استخفاف متعالية

لقد قبل نداء اللذة

كما قبل أيام الحرب

نداء المعركة العنيفة

من خلفه كريتون، ـفتى شجاع

مولودٌ في أدغال أبيقور

كريتون شاعرٌ وعابدٌ....

الخاريتات[1] وكبريدا وآمور[2]

عزيزٌ على القلب والعيون

مثل زهرةٍ ربيعيةٍ ما كادت لتظهر

الأخير لم يعط للزمان اسمه

بلطفٍ نزع زغب

وجنتيه الأول

أشرقت البهجة في عينيه

وغلت في القلب الفتي

حماسة القوة الغريرة......

وببهجةٍ ألقت عليهم

القيصرة نظرها.

* * * *

وهكذا قد غاب يوم

وطلع القمر ذهبي القرون

وأخفت قصور الاسكندرية

---

[1] في الأساطير اليونانية ثلاثة آلهة للجمال والمرح

[2] آلهة الحب في الأساطير الرومانية، وهي نفس كيوبيد

الظلال اللذيذة

النوافير تضرب، المصابيح تشتعل

بخورٌ خفيف يحترق

والبرودة اللذيذة

تتهيأ للآلهة الدنيوية

في غرفةٍ معتمةٍ منعمّة

بين الأعاجيب لمغرية

في ظل الستائر الأرجوانية

يتلألأ المخدع الذهبي



الفارس الفقير

وردت بدون عنوان في مسرحية نثرية غير مكتملة كتبها بوشكين كأغنية على لسان أحد أبطال المسرحية، وهي تتحدث عن فارس صليبي صُدِم بمقاومة المسلمين في فلسطين فعاد إلى قصره حزيناً وحبس نفسه فيه إلى أن مات.

مؤرخة عام ١٨٢٩.

الفارس الفقير

عاش في الدنيا فارس فقير

صموتٌ بسيط

مظهره عابسٌ وشاحب

لكنه بروحه شجاع ومخلص

* * * *

كان قد رأى رؤيا

لا يصدقها العقل

انحفرت في قلبه

بانطباع عميق

* * * *

مسافراً إلى جنيف

على الطريق عند الصليب

رأى العذراء مريم

أم السيد المسيح

من حينها محترقاً بروحه

لم ينظر إلى النساء

وحتى اللحد لم يشأ

أن يكلم واحدة

* * * *

من حينها لم يرفع

عن وجهه شبك الحديد

وعصب جبينه بمسبحةٍ

بدلاً من الوشاح

* * * *

لا يني أبداً يصلي

للأب والابن وروح القدس

لم يحدث هذا لفارس

كان إنساناً عجيباً

* * * *

أقضى الليالي بطولها

أمام وجه البتول

ناظراً إليها بعيون متفجعة

ساكباً الدمع نهراً في سكون

مليئاً بالإيمان والمحبة

مصدقاً الرؤية الإلهية

كتب بالدم على ترسه

(فلتهنئي أم المسيح*)

* * * *

ها هم الفرسان

للقاء الأعداء المرتعدين

في سهول فلسطين

اندفعوا داعين السيدة

* * * *

هتف بانفعال

(يا نور السماء، يا روزا القديسة*)

---

* هذه الجمل كتبت في الأصل باللاتينية.

ولكن حشود المسلمين

جرفته من كل الجوانب

* * * *

عائداً إلى قصره البعيد

عاش في حصرٍ شديدٍ

صامتاً دوماً، دوماً حزين

مات دونما قربان

* * * *

وما أن توفي حتى

حضرت روحٌ ماكرة

أرفع الشيطان أن يحوز

روح الفارس في عالمه

* * * *

يُزعم أنه - لم يُصلِّ للإله

يُزعم أنه - لم يصم

يُزعم أنه - لم يسعَ

في سبيل أم المسيح

* * * *

لكن البتول، طبعاً

دافعت عنه

فأدخلت في مملكة الخلود

فارسها.



من حافظ

يشير العنوان إلى أن القصيدة مأخوذة عن الشاعر الفارسي حـــافظ شيرازي (القرن الرابع عشر ميلادي) ، إلا أنه ليست لدى هذا الشاعر مثل هذه القصيدة. وجدت في المسودات معنونة (إلى فرحـــات بـــك) الذي كان يخدم في الجيش الروسي.

كتبت عام ١٨٢٩.

❋نمو خافظ❋

"مخيم على نهر الفرات"

لا تفتتن بالمجد الوضيع

أيها الفتى الوسيم!

لا تلقِ بنفسك في المعركة الدموية

مع جمهور القره باخ!

أعرف أن الموت لن يصيبك:

فعزرائيل بين السيوف

سوف يلحظ جمالك-

وسوف يشفق عليه!

ولكنني أخشى: أنك ستفقد

بين المعارك للأبد

تواضع الخطوات الوجلة

هناء النعيم والحياء!

القوقاز

قصيدة قصيرة كتبت عام ١٨٢٩ يصف فيها جبال القوقــــاز وشعوبه، وكان شديد الإعجاب به كما يبدو من قصائده وقـد أورد في ملاحظاته على قصته الشعرية "أســـير القوقـــاز" قصيدتين في وصف القوقاز، الأولـــى للشـــاعر درجـــافين (السابق عليه) والثانية للشاعر جوكوفسكي (المعاصر له).

القوقاز

القوقاز . أسفل مني . وحيداً في القمة
أقف على الثلوج عند حدود الجداول
يحلّق دون رفيفٍ معي على استواء
نسرٌ، صاعداً من القمة البعيدة
أشاهد من هنا تشكل السيول
وأول حركة الانهدامات الرهيبة

* * * *

هنا تمشي السحب بدلالٍ أسفل مني
ومن خلالها، متفجرةً، تهدر الشلالات
وتحتها جلاميد الأجراف العارية
هناك تحت الطحلب الهزيل شجيرة جافة
وهناك أيضاً أدغالٌ، ظلالٌ خضراء

حيث تزقزق الطيور وتتواثب الأيائل

* * * *

هناك حتى الناس يعششون في الجبال

وتتسلق الأغنام عبر الجداول الذهبية

وينحدر الراعي إلى السهول البهيجة

حيث يندفع (أراجفا)* في شواطئ ظليلة

ويختبئ المسافر الفقير في الوادي

حيث يلعب (تيريك)* ببهجة وحشية

* * * *

يلعب ويزأر، مثل وحشٍ فتيّ

رأى الطعام من خلف القضبان الحديدية

ويضرب في الشاطئ في عدواة عبثاً

ويلعق الصخور جائعاً مهتاجاً.......

عبثاً! ما من طعام له، ولا سلوى:

جلاميد خرساء تهصره بعنف



---

* أسماء أنهار في منطقة القوقاز

إلى نافورة قصر بقجة سراي

كتبت عام ١٨٢٤ بعد زيارة بوشكين لـــ "نافورة الدموع" الموجودة في قصر (بقجة سراي) بجزيرة القـــرم، التـــي يقال بأن خان القرم (كريم جيراي) قد بناها لذكرى ســبيته الأميرة البولونية (ماريا) التي قتلتها زوجتـــه الجورجيـــة (زريمة).

هذه القصة هي أيضاً موضوع القصة الشـــعرية "نـــافورة بقجة سراي" التي ترد ترجمتها لاحقاً.

❋ إلى نافورة قصر بقجة سراي ❋

نافورة الحب، يا نافورةً حية

أحضرتُ لكِ هديةً وردتين

أحب حديثك الصاخب

ودموعك الشاعرية

* * * *

غبارك الفضي

يرشني بندىً بارد

آه، تدفق، تدفق أيها النبع الممتع!

بخريرك إحكِ لي حكايتك........

* * * *

نافورة الحب نافورة حزينة!

لقد سألت مرمرك

قرأت مديح البلاد البعيدة[1]

---

[1] كتب على النافورة مديح لبلاد الشام وبغداد (ملاحظة بوشكين).

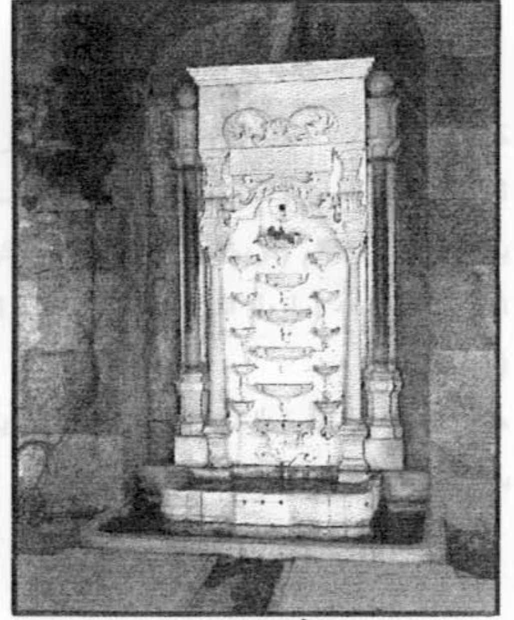
ولكنك عن ماريا[1] قد صمت

❋ ❋ ❋ ❋

كوكب الحريم الشاحب!

أيعقل أن تُنسي هنا؟

أم أن ماريا وزريمة[2]



نافورة الدموع

في قصر بقجة سراي

---

[1] كتب على النافورة مديح لبلاد الشام وبغداد (ملاحظة بوشكين).

[2] ماريا سبية خان القرم وزريمة زوجته التي قتلتها من الغيرة.

أم أن حلم لخيال

رسم في العتمة الموحشة

رؤاك الخاطفة

مثالاً مبهماً روحك؟



مسلم فقير

القصيدة بدون عنوان ومؤرخة عام ١٨٢١، وهي ترجمة حرة عنوانها "بداية حكاية شعرية للشعرالفرنسي. أ. بوردون دي سـينيني عنوانـه "قَيْمَقْ"، أو الثقة الضائعة "، والقيمق هي القشدة.

❋ مسألة نقدية ❋

منذ وقت عاش في يورزوف

مسلمٌ بائسٌ مع أولاده وزوجه

بروحه قرأ القرآن المقدس –

وكان سعيداً بقدره.

* * * *

محمد – هذا هو اسمه – يرعى

بجدٍ كل اليوم النحلَ والقطيع

والكرم المنزلي

لم يعرف ما هو الكسل

أحبَّ زوجته – عرفت ذلك فاطمة

وفي كل سنةٍ ولدت له طفلاً

بعرفنا – أصدقائي– هذا مضحك

ولكن عند التتر - هذا يحسد عليه
مرة فاطمة - كانت وقتها
حامل في الشهر الثالث، والكل يرى
أنه في هذه الحال
وحتى أكثر الزوجات رزانة_
تستطيع أن تعتني بهذا
وذاك، يعلم الرب، ما هو ! -
قالت لزوجها بحنان:
"عزيزي، أشتهي بشدة القيمق
حتى إني أفقد رشدي وعقلي
وتحترق أيضاً معدتي
لم أنم طول الليل - وانظرْ يا روحي
أنا اليوم بالتأكيد لست على ما يرام
لا أستطيع حتى أن أمتشط
ولكي لا ألد صغيراً على أنفه قشده
مثل هذا العذاب لن احتمله
أيها اللطيف، الحنون، الجميل، صديقي
احصل لي على القيمق ولو قطعة صغيرة"

انصاع محمد، تهيأ وأخذ

في كيسه صحناً سميكاً

بارك الأطفال، قبل الزوجة

وركض مسرعاً إلى السهل القريب

لكي يرضي المريضة

لم يمشِ بل هو طار، فهو في طريق العودة

انزلق عبر الجبال، بالكاد - بالكاد ماشياً

وسرعان ما أخذ يبحث - منهكاً تماماً-

عن مكان ليستريح

لسعادته شاهد في

آخر السهل نهيراً.

وصل إلى الشاطئ وستلقى في الأغصان

خرير الماء، قمم الأشجار

الأعشاب الغظرية، الشاطئ البارد

والظل والنسيم العليل

كلها توسلت، كلها قالت:

"اعشق أو أرقد!" - اعشق!

مثل هذا اللهو لا يخطر ببال محمد

هذا إذا استطاع - ولكن النوم!
هذا جميل، معقول وأوثق
لهذا نام محمد في السهل مثل قيصر
لنفرض أنه أتيح للقيصر أن ينام براحة
تحت مظلة على حشية ريش
وإن كان ذلك - للمناسبة - غريباً



القصص الشعرية

أسير القوقاز

قصة شعرية كتبها بوشكين عامي ١٨٢٠ و ١٨٢١ متأثراً بزيارته الأولى للقوقاز، ويحكي فيها قصة أسير روسي وقع في يد الشركس، وهي حكاية سمعها بوشكين في تلك الزيارة فصاغها شعراً.

أهداها إلى صديقه (ن . رايفسكي) وتحدث في إهدائه عن معاناته في بداية نفيه.

❋ أسير القوقاز ❋

قصـــة

الإهـــداء

إلى: ن . ن . رايفسكي

* * * *

تقبل بابتسامة يا صديقي

هدية موزا [1] الحرة:

لك قد وضعت غناء القيثارة المنفية

وإلهام أوقات فراغي.

عندما هلكت بلا ذنبٍ كئيباً

---

[1] آلهة الشعر والفن عند الإغريق

وسمعت همس الشتائم من كل الجهات

عندما خنجر العذر البارد

عندما حلم الحب الثقيل

مزقتني وأهلكتني

ولكني وجدت قربك السكينة

وارتحت قلبياً - لقد أحببنا بعضنا البعض:

وتراكمت فوقي العواصف في ضراوة

في مرفأ السلام الإلهي بوركت.

* * * *

في أيام الفراق الحزينة

ذكّرتني بالقوقاز

أصواتي الحالمة

حيث بشتوا[1] الضبابي، الناسك الكبير

سيد القرى والحقول، حماسي الرؤوس

كان لي بارناس[2] الجديد.

هل سأنسى قمته الصوانية

---

[1] جبل في القوقاز

[2] جبل في اليونان يعيش فيه حسب أساطيرهم أبولو وآلهة الشعراء والفن.

وينابيعه الهادرة، وسهوله الذابلة

وصحاريه القائظة، وحوافيه، حيث وأنت معي

تقاسمنا انطباعات النفس الفتية

حيث يغامر في الجبال سالبٌ مقاتل

ويختبئ في الهدوء الأصم

الإلهام العبقري الوحشي؟

هنا تجد الذكريات

وربما الأيام العزيزة على القلب

وولع التناقضات

وأحلاماً معروفة، ومعروفة المعاناة

والصوت السري لروحي.

* * * *

سرنا في الحياة فرادى: بالكاد، بالكاد ازدهر

في أحضان الطبيعة، وفي أثر الأب - البطل

اندفعت باعتزازٍ _في الساحات الدموية

تحت وابل سهام الأعداء، فتى مختاراً

لاطَفَك الوطن بحنان

كشهيدٍ غالٍ، كنور الآمال الصادق

عرفتُ باكراً الجزع، وأصابني العسف
كنت ضحية الوشايات وجهل المنتقيمين
لكن، مقوِّياً القلب بالحرية والصبر
انتظرت بلا مبالاة أياماً أفضل
وكانت سعادة أصدقائي
سلوىً حلوةً لي.



الجزء الأول

في القرية على أعتابهم
يجلس الشركس خاملين
أبناء القوقاز يتحدثون
عن القلاقل الحربية المهلكة
عن جمال خيولهم
وعن هناء النعيم البري
يتذكرون الأيام الخالية
والغزوات الماحقة
حِيَل الأمراء المخادعين
وضربات سيوفهم الظالمة
دفة رماياتهم التي لا تخيب
ورماد القرى المدمَّرة
ولطف السبيّات سوداوات العيون

تجري الجلسات في صفاء

القمر يسبح في الضباب الليلي

وفجأة ، أمامهم على الحصان

شركسي أمسك بسرعة بحبله

أسيراً فتياً

"ها هو الروسي!" – صرخ الوحش

هرعت القرية على صراخه

حشداً ضارياً

لكن الأسير فاترٌ وأصم

برأسٍ مشوَّه

كجثةٍ، بقي دون حراك.

لا يرى وجوه الأعداء

لا يسمع التهديد والصراخ

يطير فوقه شبح الموت

ويتنفس برداً مهلكاً

* * * *

طويلاً استلقى الأسير الشاب

في خمولٍ ثقيل

ها هو منتصف النهار فوق رأسه

قد توهج بإشراقٍ بهيج

خمدت فيه روح الحياة يتردد في أذنيه أنين مبهم

مستدفئاً بشعاع الشمس

نهض التعيس بهدوء

يلقي حوله نظرة ضعيفة..........

فيشاهد: جبالاً منيعة

فوقها انتصبت كتلٌ عظيمةٌ

عش القبائل الغازية

سور الحرية الشركسية

تذكر الشاب أسره

مثل قلق الحلم المرعب

ويسمع: ترتعد فجأة

قدماه المقيدتان.......

الكل، الكل يصرخ بصوتٍ رهيب

أظلمت الدنيا أمامه

عذراً أيتها الحرية المقدسة!

هو عبدٌ، مرميٌ خلف الأكواخ

عند السياج الشائك.
الشركس في الحقول ولا رقيب
كل شيء صامت في القرية الفارغة
أمامه سهول خالية
تستلقي بساطاً أخضر
هناك تمتد الجبال سلسلةً
متماثلة القمم
فيما بينها طريق وحيدة
تضيع في الأفق الكالح
اضطرب صدر الأسير رالشاب
بفكرة ثقيلة.......

* * * *

إلى روسيا يقود الطريق البعيد
إلى البلد الذي بدأ فيه بلا مشاغل
زهو الشباب الملتهب
حيث عرف السرور لأول مرة
حيث أحب أعزاء كُثُر
حيث واجه معاناة حزينة

حيث أمضى حياة عاصفة

الأمل والسرور والهوى

وأجمل أيام التذكر

في قلبه الذابل احتواها

اختبر الناس والدنيا

عرف ثمن الحياة المتقلبة

وجد في قلوب الأصدقاء الخيانة

وفي أحلام الحب حلماً مجنوناً.

معذّب أن تكون ضحيةً عادية

لقلاقل مزدراة من زمن

وكراهية ثنائية اللغة

ووشايات ساذجة

هجر الدنيا صديق الطبيعة

ترك البلد الحبيب

وطار إلى ناحية بعيدة

مع طيف الحرية البهيج

* * * *

الحرية ! عنك فقط

ما زال يبحث في العالم الفارغ
قائلاً أحاسيس الشهوات
فاتراً عن الآمال والعواطف
أصغى بقلق إلى الأغاني
التي استلهمتكِ
وبتضرعٍ ملتهب، مؤمناً،
عانق نصبك المجيد.

* * * *

وهكذا ...... ما عاد يرى
في الدنيا من الآمال شيئاً
وأنتِ يا آخر الأحلام
ها قد تواريت عنه.
هو عبدٌ، يضع رأسه على الصخر
ينتظر كي، مع الفجر الصباحي
تنطفئ شعلة الحياة الكئيبة
وتتعطش ظلال القبور

* * * *

ها قد غابت الشمس خلف الجبال

تردد من بعيدٍ هديرٍ صاخب

الشعب يعود من الحقول إلى القرية

ملوِّحين بمناجل لامعة

عادوا، أوقدوا النار في البيوت

وبالتدريج هدأت الضجة الفوضوية

الكل في ظلمة الليل

يعانق الهناء الهادئ

بعيداً يتلألأ نبعٌ جبلي

منبثقاً من جدولٍ حجري

قمم القوقاز الغافية

ارتدت غشاوة من سحاب........

ولكن من في قلب السكون العميق

في ضوء القمر

يسير بخطى سارق؟

تنبه الروسي، أمامه

تقف شركسية شابة

صامتةً مع تحيةٍ حنونة

ينظر إلى الفتاة صامتاً

ويفكر: هذا حلمٌ كاذبٌ

خدعة باطلة من المشاعر المتعبة

مضاءةً بالقمر قليلاً

مع ابتسامةٍ أسفٍ حانية

ثانية ركبتها

تقرِّب لشفتيه الكُميصَ* البارد

بيدٍ ساكنة

لكنه نسي الإناء الشافي

اقتنص بنفسٍ عطشى

الصوت الساحر للحديث الممتع

ونظرات الفتاة الشابة

هو لا يفهم الكلمات الغريبة

ولكن النظرة الحنونة، ولهيب الخدود

لكن الصوت الرقيق يقول:

عِشْ! كذلك الأسير يحيا

وهو، جامعاً باقي قواه

---

* لبن الخيل المختمر

مطيعاً الرغبة الحانية

ينهض قليلاً - وبكأسٍ منعشة

يخمد عذاب السغب

ثم ينحني ثانية على الصخر

برأس مثقلة

وبكل بصره الخابي

ينظر إلى الشركسية الشابة

وهي، طويلاً طويلاً أمامه

جلست حالمة

كأنها بالمشاركة الخرساء

أرادت تهدئة الأسير

افترَّ ثغرها بلا إرادة كل ساعة

مع بداية الكلام

وغير مرةٍ تنهدت

وامتلأت عيناها بالدموع

* * * *

أيامٌ خلف أيام انقضت كالظل

مقيداً في الجبال عند القطيع

يمضي الأسير كل اليوم

يُظلّه في قيظ الصيف

كهفٌ رطب بارد

وعندما يلمع خلف الجبل الضبابي

قرن القمر الفضي

تجلب الشركسية للأسير

في ممر ظليلٍ الخمرَ

والكميص وشهد القفير العطري

وجريش دخنٍ كالثلج

تتقاسم معه العشاء السري

تثبت عليه نظرةً حانية

تتكلم بحديثٍ غير مفهوم

حديث العيون والإشارة

تغني له أيضاً أغاني الجبال

وأغاني جورجيا السعيدة

وذكريات عجلى

تنقلها لغة غريبة

لأول مرة بروح فتية

عشقتْ، عرفت السعادة

لكن الروسي أضاع من قبل

حياة شبابه بالشهوات

لم يستطع بقلبه أن يجيب

حباً فتياً وصريحاً -

لعله خشي أن يتذكر

خيالَ حبٍ منسي

* * * *

شبابنا لا يذبل فجأة

وليس فجأة تتركنا المباهج

فالسرور الغير منتظر

ما زلنا نعانقه غير مرة

ولكن أنت أيتها الانطباعات الحية

أيها الحب الأول

يا شعلة السرور الإلهية

لا تحضرون مرة اخرى

* * * *

يبدو أن الأسير البائس

قد اعتاد على الحياة الخاوية

أخفى عميقاً في نفسه

عذاب الأسر ولهيب التمرد

متجولاً بين الصخور الضخمة

في ساعة مبكرة، مع برودة الصباح

حملق بنظرة فضولية

في القمم البعيدة

للجبال الشائبة المتورّدة المزرقة.

لوحات رائعة!

عروش الجليد الأبدية

بدت للعيون قممها

سلسلة ثابتة من السحب

وفي جوارها ماردٌ ثنائي الرأس

يلمع في تاجه الجليد

إلبروس الكبير العظيم

لاح أبيضاً في السماء الزرقاء.

عندما ينهال مطلع العاصفة

يقصف الرعد بهدير أخرس

فوق القرية بلا حراك، كما غالباً

جلس الأسير على الجبل!

تناثرت عند قدميه السحب

وتصاعد في السهب الغبار الطائر

ها هو الوعل المذعور

يبحث عن ملجأ بين الصخور

ارتفعت النسور عن الأجراف

وتصايحت في السماء

ضجيج الأسراب وخوار القطعان

طغى على صوت العاصفة......

وفجأة هذا هو المطر والبَرَد

ينفجر من السحب خلال البرق

جرت السيول المطرية

بأمواجٍ كالأسراب المنحدرة

دافعةً الصخور الأبدية

أما الأسير، من القمة الجبلية

فقد انتظر عودة الشمس

غير متأثرٍ بالعاصفة

واستمع بسعادةٍ ما
لهدير العاصفة الخافت

* * * *

لكن كل الانتباه الأوروبي
جذبه ذلك الشعب العجيب
لاحظ الأسير بين الجبليين
إيمانهم وعاداتهم وأخلاقهم
أحب بساطة حياتهم
كرمهم وتعطشهم للقتال
سرعة حركتهم الحرة
وخفة أرجلهم وقوة سواعدهم
شاهد لساعات كاملة
كيف، أحياناً ، الشركسي الرشيق
بخطوة واسعة عبر الجبال
بقبعة كثة الفرو، بعباءة لباد سوداء
مائلاً إلى منعطف النهر، في التيار المندفع
متدبراً بساقين ممشوقتين
يطير على حصان أصيل

إلى الحرب، يشارك فيها باكراً
تعجب من جمال الثياب
مزخرفة وبسيطة
الشركسي مدججاً بالسلاح
تفاخر به، وبه استكان
عليه درعٌ وجراب سهامٍ وبندقية
وقوس كوباني وخنجرٌ وحبل أنشوطة
وسيفٌ، الصديق الأبدي
في أوقات فراغه وعمله
لا شيء يضايقه
لا شيء يزعجه: راجلاً، فارساً
دائماً هو كذلك، دائماً نفس المظهر
لا ينهزم، لا يخضع
في زوبعة القوزاق* المتهوِّرين
ثروته : جواد مندفع

---

* القوزاق: في روسيا القيصرية مجموعات حربية متطوعة من المزارعين والفلاحين على حدود الإمبراطورية لحماية الحدود والتوسع.

ربيب القطعان الجبلية

رفيق أمين وصبور .

في الكهف أو في العشب الكثيف

وحشيٌ غادرٌ يختبئ

وفجأة، مشاهداً المسافر

يهاجمه بسهمٍ مباغت.

المعركة الصحيحة تتقرر

في لحظة واحدة بضربته القوية

والغريب في شعاب الجبل

يجرُّه وَهَوَ طائر

يجري حصان بمنتهى السرعة

مملوء بجرأةٍ نارية

كل طريقه: مستنقعٌ، حرشٌ

دغلٌ، أجراف ووديان

أثرٌ دموي يجري خلفه

ويتجاوب صدى وقع أقدامه في الفراغ

التيار الأشيب أمامه يهدر

ينهمر في العمق الغائر

والمسافر الملقى إلى القاع

يبتلع الموجة العكرة

من يأسه يطلب الموت

وهو يراه أمام عينيه.......

ولكن حصاناً قوياً، كالسهم

يحمله إلى الشاطئ المزبد.

* * * *

أو مختطفاً جذموراً أقرنا

أسقطته العاصفة في النهر

عندما يستلقي على التلال غشاوةً

ظل الليل عديم القمر

يعلّق الشركسي على الجذور العتيقة

وعلى الأغصان حوله

عدته الحربية:

ترسٌ، عباءة لبادٍ، درعٌ وخوذة

بندقية وقوس - وفي الأمواج السريعة

يلقي نفسه خلفها بعد ذلك

بهدوء ودون كلال.

ليلة صماء. النهر يزمجر

تياره القوي يحملها

على طول الشواطئ الموحشة

حيث على التلال المرتفعة

متكئين على الرماح، القوزاق

ينظرون إلى مجرى النهر القائم

وقربهم في الظلمة السوداء

تقوم أسلحة الشرير........

بماذا تفكر أيها القوزاقي؟

تتذكر المعارك السابقة

أم مخيمك في ساحة الوغى

أم صلواتَ الشكر من المقاتلين

والوطن؟ .... حلمٌ غادر.

سامحوني يا قرى القوزاق الأبية

ويا بيتَ الآباء، والدونَ الهادئ

والحرب والفتيات الفاتنات!

رسى على الشاطئ عدوٌ مجهول

تخرج طلقة من بندقية-

تطير – ويسقط القوزاقي

من التل الملطخ بالدماء

* * * *

عندما يجلس الشركسي في موطنه

مع عائلته آمناً

في أوقات المطر

ويتجمَّر الفحم في الموقد

يكمن في الجبال الجرداء ساهراً

مع حصان أمين

يدخل عليه طارق متعب

يجلس على النار من وجل

عندها ينهض رب البيت

ملاطفاً إياه بودٍ وتحية

ويقدم للضيف كأساً شذيه

من نبيذٍ لذيذ

وتحت عباءة لبادٍ ندية، في منزل

مدخنٍ، يتذوق المسافر نوماً آمناً

ويغادر في الصباح

المأوى الليلي المضياف

* * * *

أحياناً، في العيد الزاهي

يتجمع الشباب حشداً

تتبدل اللعبة باللعبة

أو، آخذين بندقية محشوة

يطعنون النسور في السحب

بطلقات مجنحة

أو من علو التلال المنحدرة

بصفوفٍ عجلى

عند إشارة معروفة، فجأة يهبطون

كالأيائل تضرب الأرض

وتغطي السهل بالغبار

وبدبدبةٍ مألوفة يركضون

* * * *

لكن الحياة الرتيبة موحشةٌ

للقلوب المولدة للحرب

وغالباً ما ألعاب العيد

تخالطها ألعاب قاسية

ليس نادراً ما تتلألأ السيوف بعنف

في الطيش المجنون للحفلات

وتطير هباءً رؤوس العبيد

ويمرح الشباب في هناء

* * * *

لكن الروسي ينظر بلا اهتمام

إلى تلك الألعاب الدموية

لقد أحب قبلاً ألعاب المجد

واحترق بالتعطش للموت

سجين العزة الجائرة

رأى قريبةً نهايته

في وحدته، صابراً متجلّداً

يواجه رصاص الموت.

أيكون، في فكره المشحون

قد تذكر ذلك الزمان

عندما، محاطاً بأصدقائه

احتفل معهم بصخب........

هل تأسف للأيام الخالية

للأيام المخيفة للآمال

أم أنه، بفضولٍ، تأمل

بساطة الألعاب الشديدة

وعادات الشعب البدائي

في هذه المرآة الوثيقة قرأ

فأخفى في الصمت العميق

وجيب قلبه

وعلى كتفه العالي

لم يتغير أي شيء

تعجب الشركس القساة

من شجاعته العاطلة

رحموا عمره الفتي

وهمساً بين أنفسهم

تفاخروا بإمساكهم به.



الجزء الثاني

أنت تعرقين يا فتاة الجبال
دهشة القلب وحلاوة الحياة
نظرتك اللاهبة البريئة
عبَّرت عن الحب والسرور
عندما في عتمة الليل
قبّلك صديقك قبلة خرساء
ملتهباً بالشوق والهناء
نسيتِ تراب أرضكِ
وقلتِ: "أسيري العزيز
أبْهج نظراتك الذابلة
احنِ رأسك على صدري
انسَ الحرية والوطن
ارتضي أن أختبئ في صحراءٍ معك

مليكَ روحي أنت!

أحببني، لا أحد حتى الآن

قبَّل مقلتي

وإلى سريري المنفرد

لم يتسلل في هدأة الليل

فتى شركسيٌ أسود العيون،

مشهورة أنا فتاةٌ بجمالٍ

رهيبٍ لا يرحم

وأعلم أن القدر متربص بي

فأبي وأخي القاسي

يريدان بيعي لفظٍ

في قرية أخرى مقابل الذهب

وقد توسلت للأخ والأب

لا لشيء، بل لأحصل على خنجرٍ أو سم،

أنا منجذبة إليك

بقوة عجيبة لا يُدْرك كنهها

أحبك أيها السجين اللطيف

روحي متعلقة بك" ....

لكن بأسف صامت

ينظر إلى الفتاة الولهى

مليئاً بأفكار ثقيلة

يستمع إلى كلمات حبها .

يشرد، تزاحمت فيه

ذكريات الأيام الغابرة

وحتى الدموع تنحدر أحياناً

من العينين مثل البَرَد

يقع في القلب مثل الرصاص

هَمَّ الحب دون أمل

وأخيراً أمام الفتاة الشابة

صرَّح عن معاناته:

* * * *

" انسيني، انسي حبك

أنا لا أستحق إعجابك

لا تضيِّعي الأيام الثمينة معي

ابحثي عن فتى آخر

سيعوِّضك حبه

عن فتور نفسي الحزينة

سيكون أميناً، سيُقدِّر

جمالك ونظرتك الحنونة

ولهيب القبل الفتية

ورقة الأحاديث الملتهبة،

أنا أذبل ضحية الشوق

بحزنٍ، بلا أمل،

أنت ترين أثر الحب التعيس

وأثر العاصفة الروحية الفظيع

اتركيني ، ولكن تأسفي

لمصيري البائس!

صديقتي التعيسة، لماذا ليس قبلاً

لم تظهري لناظري

في تلك الأيام التي صدَّقت فيها الأماني

والأحلام السعيدة!

لقد تأخرت، أنا بالسعادة ميت

طار شبح الآمال

صديقك هجر الشهوات

تحجَّر للمشاعر الرقيقة. ....

* * * *

كم صعباً على الشفاه الميته

أن تجيب على القبل الحية

والعيون المليئة بالدموع

أن تُقابَل بابتسامة باردة!

مُنهكاً بالغيرة سدىً

غافياً بروحٍ بلا شعور

في أحضان الصديقة الشغوفة

كم من الصعب التفكير بأخرى... !

* * * *

عندما، هكذا ببطء، هكذا برقة

تتجرعين قُبَلي

وتمر ساعات الحب عليك

بسرعة واطمئنان

مستنفذةً دموعك في سكين

عندها، مبعثراً ذابلاً

أمام نفسي كما في حلم

أشاهد مثالاً لطيفاً أبداً

أناديه، أهفو إليه

أصمت، فلا أرى ولا أسمع

أستسلم إليه في ذهول

وأضم الحلم الخفي

أذرف الدموع عليه في الخلاء

في كل مكان هو يمشي معي

ويسكب غمّاً قاتماً

على روحي المستوحدة.

* * * *

اتركي لي حديدي إذاً

وأحلامي الوحيدة

والذكريات والحزن والدموع

لا تقدرين أنت على تمييزها

لقد سمعت اعتراف قلبي

سامحيني .... أعطي يدك للوداع

لا يكدّر الفراقَ البارد طويلاً

الحب الأنثوي:

ينقضي الحب ويحل الملل

والحسناء تحب ثانية".

* * * *

جلست الفتاة الشابة

فاغرةً فاها، باكية بلا دموع

والنظرة الضبابية الثابتة

عبرت عن العتاب بلا كلام

شاحبةً كالظل ارتعشت:

رَقَدت يداها الباردتان

في يدي الحبيب

وأخيراً انسكب عذاب الحب

من حديث حزين:

* * * *

"آهٍ يا روسي يا روسي، لماذا

لا تعرف أنت قلبك

أنا باقية عليك أبداً

لم تسترح طويلاً على صدرك

في ذهول فتاة

لم ترسل الأقدار إليها
كثيراً من الأيام الهنيئة
أتعود ثانية يوماً؟
هل ماتت للأبد السعادة؟......
كيف تقدر أيها الأسير
أن تخدع شبابي الغر
فليكن للشفقة وحدها
بالصمت، بتكلف الحنان،
لكنت أسعدت حظك
بالرعاية الحنونة الخاضعة
ولكنت خفرت وقت النوم
راحة صديقي المعذّب
لكنك لم تُرد .... ترى من هي
صديقتك الفاتنة
هل تحب يا روسي؟ أم أنك محبوب؟.....
مفهومة لي معاناتك.......
اغفر لي أنت أيضاً نحيبي
ولا تضحك لأحزاني."

صمتت، ملأت الدموع والتأوهات
صدر الفتاة البائسة
ورددت الشفتان الأغاني دون كلام
بالكاد استطاعت التنفس
بلا شعور، محتضنةً ركبتيه
والأسير، بيدين هادئتين
رفع البائسة وقال:
"لا تبكِ، كذلك قد ظلمتني الأقدار
وقد اختبرت عذاب القلب
لا، أنا لم أعرف حباً متبادلاً
أحببت لوحدي، تعذبت لوحدي
وأنا أنطفئ مثل شعلة دخناء
منسية وسط السهول الفارغة
سيكون هذا السهب قبراً لي
هنا على عظامي الشريدة
ستصدأ السلاسل المضيئة ....."

* * * *

خفتت نجوم الليل

ومن بعيد بدت ناصعة

قمم الجبال الثلجية

حانيين رأسيهما، مطرقي النظر

تفرقا بصمت.

* * * *

منذ ذلك الحين، وحيداً حول القرية

يتسكع الأسير الذاوي

والفجر، على السماء المتوهجة

يدفع يوماً جديداً خلف الأيام

خلف الليل ليلٌ بإثره يذهب.

عبثاً يتعطش للحرية

هل خطرت غزالة بين الشجيرات

هل مَرَق في العتمة ظبيٌ. -

هو، منتفضاً يقرقع بالقيود

وينتظر، هل يسرقه قوزاقي

مخرِّب القرى الليلي

مخلِّص العبيد الشجاع

ينادي ...... ولكن ما حوله صامت

فقط الأمواج تهدر صاخبة

والوحش، شامًّاً رائحة الإنسان

يهرب في الخلاء المظلم

مرة سمع الأسير الروسي

صرخة الحرب تتجاوب في الجبال:

"في القطيع، في القطيع!"، يركضون، يصخبون

الألجمة النحاسية تقرقع

تَسْوَدّ العباءات، تلمع الدروع

تغلي الخيول المسرجية

للغزو كل القرية مستعدة

المغاوير أرباب الميدان

تدفقوا من التلال نهراً

يتواثبون على شواطئ كوبان

يجمعون الأتاوات القسرية

* * * *

هدأت القرية، عند الأكواخ

تنام في الشمس كلاب الحراسة

الفتيات السمر، متجردين

في رشاقةٍ، حرَّة يمرحون
أجدادهم في المحيط يجلسون
الدخان، متصاعداً من الغليون، يزرق
والفتيات الشابات بصمت
يستمعن للترجيع المألوف
فتغدو قلوب الشيوخ فتية

الأغنية الشركسية

- ١ -

في النهر تركض الموجة الهادرة
وفي الجبال سكينة ليلية
نام القوزاقي المتعب
متكئاً على الرمح الفولاذية
لا تنم أيها القوزاقي في العتمة الليلية
شاشانيٌ يمشي خلف النهر

- ٢ -

القوزاقي يطفو على قارب

جاراً على قاع النهر شبكة

أيها القوزاقي ستغرق في النهر

كما يغرق الأطفال الصغار

سابحين في الأوقات الحارة:

شاشاني يمشي خلف النهر

- ٣ -

على شاطئ المياه المقدسة

تزهر قرى القوزاق الغنية

بمرحٍ حلقة الغناء تتراقص

اهربوا أيها المغنون الروس

أسرعوا، أيها الحمر، إلى البيت

شاشاني يمشي خلف النهر

* * * *

هكذا غنت الفتيات. جالساً على الشاطئ

يحلِم الروس بالهرب

لكن سلاسل الأسر ثقيلة

والنهر العميق سريع......

نام، خلال ذلك، السهب مظلماً

وأظلمت كذلك قمم الصخور.

مسح نور القمر الشاحب

الأكواخ البيضاء في القرية

الوعول تَنْعَس فوق الماء

خَفَت آخر صراخ الصقور

وتردّد بخفوتٍ في الجبال

دبيب القطعان البعيد

* * * *

عندها أصبح مسموعاً لأي شخص

حفيف وشاح الفتاة

ها هي، حزينة شاحبةً

تقترب منه

الشفتان الجميلتان تبحثان عن الكلام

والعينان مليئتان باللوعة

وشعرها يتساقط على الصدر

والكتفين موجةً سوداء

في إحدى اليدين يلمع منشار

وفي الأخرى خنجرها الفولاذي

بدا كأن الفتاة قد جاءت

لمعركةٍ سرِّية أو نصرٍ حربي

رافعة نظرها إلى الأسير

قالت فتاة الجبال: "اهرب،

لن يقابلك شركسي في أي مكان

أسرع، لا تضع ساعات الليل

خذ الخنجر، أَثَرُكَ

لن يلاحظه أحدٌ في الظلام"

* * * *

ماسكة المنشار بيدٍ مرتعشة

انحنت على قدميه:

يصر الحديد تحت المنشار،

انحدرت دمعة لا إرادية،

_فانفكَّ القيد وقرقع

"أنت حر، - قالت الفتاة -

اهرب!" ، لكن نظرتها المجنونة

عبَّرت عن نزوة الحب

تعذبت. الريح تصفر

صاخبة فترفع وشاحها.

"آه يا صديقي! - قال الروسي-

أنا لكِ أبداً، أنا لك حتى الموت

فلنترك هذا البلد الفظيع كلانا

اهربي معي ......" - "لا يا روسي، لا

لقد ذهبت حلاوة الحياة

لقد عرفت كل شيء، عرفت السعادة

ثم ذهب كل شيء، ضاع واندثر

لعل؟ أنك أحببت أخرى ،

جدْها، أحببها

لأي شيء أتعذب ثانية:؟

لأي شيء كآبتي؟.......

سامحني! ستكون معكم

مباركتي لحبكم في كل ساعة

سامحني! انسى عذابي

أعطيني يدك .... لآخر مرة."

مد يديه للشركسيه

بقلب منتعش طار إليها

وبقبلة وداع طويلة

رسَّخ رابطة الحب

يداً بيد، مليئتين بالكآبة

سارا إلى الشاطئ في سكون

وها هو الروسي في اللجة المضطربة

يعوم ويجعل الموج يزيد

ها هو قد بلغ الصخور المقابلة

ها هو يتشبث بها.......

فجأة أحدثت الأمواج ضجةً خافتة

وسمع أنيناً بعيداً.......

خرج إلى الشاطئ الموحش

ينظر خلفه، لمعت الشواطئ

ثم، مزبدة، ابيضَّت

لكن لا وجود للشركسية الشابة

لا على الشواطئ، ولا تحت الجبل.....

كل شيء خامد ...... على الشواطئ الغافية

سوى صوت الريح الخفيف مسموع

وعلى ضوء القمر، في المياه المضطربة

تختفي حلقة متموجةٌ.

فهم كل شيء. وبنظرة وداع

شمل للمرة الأخيرة

القرية الفارغة وسورها

وحقولها، حيث أسيراً، مرت القطعان

تياراً مندفعاً، حيث جر القيود

والجداولَ حيث استراح في الظهيرة

عندما غنى الشركسي القاسي

أغنية الحرية

* * * *

احمرَّ في السماء الليل العميق

واستلقى النهار في الوادي المعتم

طلع الفجر. طريقاً طويلاً

مشى الأسير المتحرر

وها هي أمامه في الضباب

تلمع الحراب الروسية

وعلى التلال يتصايح

القوزاق الحراس.

"الخاتمة"

هكذا موزا، صديقة الأحلام اللعوبة

إلى أطراف آسيا طارت

ولإكليل زهور لها قطعت

زهور القفقاس البرية

فَتَنَتْها الألبسة الخشنة

للقبائل المترعرعة على الحرب

وكثيراً ما ظهرت لي ساحرةٌ

في هذه الثياب الجديدة

وحيدة تسكعت على الصخور

حول القرى المدمرة

واستمعت هناك إلى

أغنيات الفتيات المتيتمات

أحبت القرى المقاتلة

ومعارك القوزاق الشجعان

والتلال الضريحية والمقابر الهادئة

ضجةَ ورغاء القطعان

لعلها، ربة الأغاني والحكايا

تعيد، مليئة بالذكريات

أسطورة القوقاز الحزين

تحدث بأخبار البلاد البعيدة

معركة مستيسلاف[1] القديمة

الخيانات ، موت الروس

في أحضان الجورجيين الثائرين

متغنيةً بتلك الساعة المجيدة

عندما، نتيجة المعركة الدموية

ارتفع نسرنا ثنائي _الرؤوس[2]

على القوقاز الساخط

عندما على تيريك[3] الأشيب

لأول مرة دوّى رعد المعارك

---

[1] معركة جرت بين أسلاف الشركس والروس القدماء

[2] شعار روسيا القيصرية والحالية

[3] نهر في القوقاز

وضربات الطبول الروسية

وفي الحومة بجبينٍ جريء

ظهر تسيتسيانوف[1] المتقد

لك سأتغنى يا بطل

يا كوتلياريفسكي[1] يا سوط القوقاز!

إلى حيث اندفعت كالعاصفة

مسيرك كالوباء الأسود

أهلكت، دمرت القبائل........

أنت اليوم هجرت موضع السيف

لا تبهجك الحرب

مشتاقاً للسلم، في لوحة الشرف

تتذوق الهدوء المفرح

وسكينة الساعات البيتية......

لكن الشرق يرفع صوته....... !

اخفض رأسك في الثلج

استسلم يا قوقاز: يرمولوف[1] قد جاء!

---

[1] أبطال معركة مستيسلاف المذكورة

خمدت صرخة الحرب المتعصبة

الكل أذعن للسيف الروسي

أبناء القوقاز الأمجاد

قاتلتم، ضحَّيتم كثيراً

ولكن دماءنا لم تنقذكم

ولا الدروع المتقنة،

ولا الجبال ولا الخيول السريعة

ولا الحب البدائي للحرية!

مثل قبيلة باطيا التي

خانت أسلاف القوقاز

ونسيتْ نداء القتال الطامح

تركت الرمايات الحربية

إلى الشعاب حيث عششتم

يقترب المسافر دون خوف

وينشرون عن عقوبتكم

أساطير وأقوال قاتمة .

تازيت

قصة شعرية غير منتهية، بدأ بوشكين كتابتها في نهاية عام ١٨٢٩وبداية ١٨٣٠ متأثراً بانطباعاته خلال وجوده في القوقاز وبما سمعه عن قصة (غصوب وابنة تازيت). ويبدو من المسودات أن القصة تنتهي بهرب الابن إلى الجانب الروسي ثم مقتله في معركة بيد والده.

❋ تازيتة ❋

ليس للسَمَر والابتهاج

ليس للاجتماعات الدموية

ليس لمباسطة الأصدقاء

ليس لتهدئة قطاع الطرق

نَزَل هكذا مبكراً الأتباع

إلى قصر غصوب العجوز

في لقاءٍ مفاجئ، بيد حاقدٍ

قُتِل ابن غصوب

قرب خرائب تاتار توب

ها هو يرقد في داره الحبيبة

تجري طقوس الدفن

تصدح بكآبة أناشيد الملا.

على العربة ثيران موثقة

تقف أمام الدار الحزينة

القصر مليء تماماً بالناس

يجأر الضيوف بنحيب مؤلم

وتتململ الخيول الموثوقة

سامعةً ضجة غير حربية

الكل ينتظر. أخيراً يخرج الأب

من الدار بين نسائه

اثنان من الرؤساء خلفه

يحملان على عباءة الجثة الباردة

والناس على الجوانب يرتمون متفرجين

يمددون الجسد في العربة

ويضعون معه عدة حربية:

درعٌ وقوسٌ خنجرٌ جورجي

وسيوفٌ من الفولاذ الصليبي

لكي يصبح القبر منيعاً

حيث يرقد البطل ميتاً

لكي يستطيع، على نداء عزرائيل

أن ينهض جندياً صالحاً

* * * *

الموكب جاهزٌ على الطريق

تحركت العربة، وخلفها

يسير الأتباع عابسين

كابحين بصمت اندفاع الخيل.......

هاقد خبا الغروب الناري

مذهِّباً الصخور الجبلية

عندما وصلت الثيران الهادئة

إلى الوادي المحجر

في ذلك الوادي عدو طامع

جندل فارساً شجاعاً.

هناك الآن ظل القبر البارد

سيستوعب جثته الخرساء.......

* * * *

ها قد أخذت الأرض الجثة

رُدم القبر. قرأ الناس حوله

آخر الدعوات

ظهر من خلف الجبال فجأةً

شيخٌ أشيب وفتىً مهياف

يفسحون الطريق للقادم:

رزيناً هادئاً أبان

للأب العجوز المتألم:

"منذ ثلاثة عشر عاماً مضت

عندما أتيت للقرية الغريبة

سلمتني صبياً ضعيفاً

لكي أجعل منه بالتربية

شاشانياً شجاعاً

اليوم أحد أبنائك

قبل الأوان دفنته،

غصوب فلتذعن للقدر

لقد أحضرت لك الآخر

ها هو، يمكن أن تسند رأسك

إلى كتفه القوية

ستعوض به خسارتك

ستقدر تعبي بنفسك

ولا أريد أن تطريه."

* * * *

صمتٌ. نظر غصوب
بعجالةٍ إلى الفتى. تازيت
خافضاً رأسه ، بصمت
تَوَجَّب عليه ألا يتحرك
متعزياً في مصيبته، غصوب
شاعراً بالذنب في صميم قلبه
يعانقه بحنان
ثم يلاطف المربي
يشكره ويدعوه
إلى تحت سقف بيته
يريد أن يستضيفه
ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ مع الأصدقاء
وبعد ذلك يودعه باحترام
مع التبريك والهدايا.
بدا للأب تخيُّل مؤسف
أنا ملزمٌ بطيبةٍ لا تقدر

خادماً وصديقاً أميناً

آخذاً بثأر قادر.

* * * *

تمر الأيام. خبا الحزن

في نفس غصوب. لكن تازيت

يحفظ كل انطوائه السابق.

وسط القرية الأليفة

هو كالغريب، طيلة اليوم

وحيداً في الجبال، صامتاً يتسكع.

هكذا الوعل المربى في المترل

يتطلع دائماً إلى الغابة، دائماً يذهب إلى الأجمات

هو يحب: أن يتزحلق على الصخور المنحدرة

أن يتسلق الممرات الصوانية

مستمعاً للعاصفة المدوية

والأمواج الهادرة في الوهاد

هو أحياناً، إلى الليل الأخير

يجلس حزيناً على الجبال

مثبتاً عينيه في البعد بلا حراك

سانداً رأسه على يديه

أية أفكار تمر به؟

ماذا يأمل وقتها ؟

من عالمٍ بعيدٍ حيث

تقوده أحلامه الفتية؟.....

كيف المعرفة، غير مرئية أعماق القلوب

الفتى على هواه في الأحلام

كالريح في السماء ..... لكن الأب

أصبح غير راضٍ عن تازيت

"أين ترى - يفكر هو - ثمرة العلم فيه

الجرأة، البراعة والفراهة

الفكر البارع وقوة الذراع

فيه فقط الكسل والعقوق

أم أن نظرتي في الفتى لم تُصِبْ

أم أن الشيخ قد خدعني".

* * * *

يخرج تازيت من القطيع

حصاناً حبيباً لنفسه

يومان ليس في القرية هو

وفي الثالث يأتي القرية

الأب:

أين كنت يا بني؟

الابن:

في وادي الصخور

حيث ينكسر الشاطئ الصخري

وينفتح الطريق إلى داريال

الأب:

ماذا فعلت هناك؟

الابن:

استمعت إلى تيريك

الأب:

ألم تشاهد جورجياً

أو روسياً؟

الابن:

رأيت أرميناً

مع بضاعة جاء من تبليس

الأب:

هل كان معه حرس؟

الابن

لا، لوحده

الأب:

لماذا تفكر أن تصرعه

بضربة مفاجئة

و لم تقفز عليه من الجرف؟

ابن الشركسي أطرق نظره

غير مجيبٍ بشيء

* * * *

ثانيةً يمتطي تازيت الجواد

يختفي يومين وليلتين

ثم يظهر في البيت

الأب:

أين كنت

الابن:

خلف الجبل الأبيض

الأب:

من قابلت؟

الابن:

على التل

العبد الهارب منا.

الأب:

يا للقدر الرحيم!

أين هو؟ ألم تسحب

الآبق بالأنشوطة؟ -

يحني ثانية رأسه تازيت

عَبَس غصوب بصمت

ولكنه أخفى سخطه

"لا، - يفكر هو - لن يعوِّض

أبداً الأخ الآخر

لم يتعلم تازيت

كمن يستخرج الذهب بالسيف

لا قطعاني ولا الأسراب

تجاري تحولاته

هو يعرف فقط، دون جهد

لتنصت للأمواج والنظر للنجوم

وليس من الغزوات

دفع الخيول مع الثيران الموثقة

وجلب العبيد المأخوذين

في المعركة هنا في عّناب".

* * * *

ثانية يسرج تازيت الجواد

يختفي يومين وليلتين

وفي الثالث يأتي إلى البيت

شاحباً كالميت. والأب

مشاهداً إياه يسأله:

"أين كنت؟

الابن

حول محطة كوبان

قرب حدود الغابة

* * * *

الأب

من رأيت؟

الإبن

سوبوستان

الأب:

من؟ من؟

الابن:

قاتل أخي

الأب:

قاتل! بني! .....

تعال! .... أين رأسه؟

تازيت! ... هذه الجمجمة تلزمني

دعني أنظر!

الابن:

كان القاتل

وحيداً، مجرَّحاً بلا سلاح......

الأب:

أنت لم تنسَ واجب الدم... !

أليس كذلك؟ سللت السيف

وأخذت تغرزه في حنجرته

وأدرته ببطء ثلاثاً

وسكرت من أنينه

من احتضاره الأفعواني......

أين الرأس؟ .... أعطني .... لاقوة لي

لكن الابن صامتٌ، مطرق ببصره

فغدا غضوب أقتم من الليل

وبتوعدٍ صرخ إلى إبنه:

* * * *

"اذهب بعيداً، ليس لي بابن

لست شاشانياً، أنت امرأة

أنت جبان، أنت عبد، أنت أرمني

أنا ألعنك ! اذهب لا أحد

يسمع عن تخاذلك شيئاً

وأنت تنتظر دوماً لقاء رهيباً

وإن أخاك الميت على كتفيك

جلس قطة مدمّاة

يدفعك إلى الهاوية بلا رحمة

وأن تكون مثل وعلٍ جريح

يهرب معانياً الألم

وأن _أطفال القرى الروسية

قد اصطادوك بحبلٍ

ومثل جرو الذئب عذبوك

وأن .... أغرب ...... أغرب سريعاً !

لا تدنِّس عيني ! "

قال ذلك ثم ارتمى على الأرض

وأغلق عينيه، هكذا ارتمى حتى الليل

وعندما نهض لم تكن

قبة السماء زرقاء

القمر، ساطعاً، طلع

مفضضاً قمم الصخور

دعا تازيت ثلاثاً ،

لم يجبه أحد........

* * * *

تجمع سكان القرى الجبلية

في الوادي بضجة.
ابتدأت الألعاب المعتادة:
يندفع الشباب الشاشان
بحماسة إلى القمم بكل سرعة
يثقبون القبة بالرماية
أو يشقون سريعاً بالسيف
بسطاً مطوياً ثلاثاً
أو يتسلون بسباق التزحلق
أو الرقص السريع. خلال ذلك
تغني الزوجات والبنات – وحفيف الغابات
يردد بعد ذلك أغانيهم
ولكن بين الشباب واحدٌ
لا يقاسم الفرسان ألعابهم
لا ينطلق إلى القمة بمحاذاة الجداول
ولا يسدد من قوسه الرنان
وبين الفتيات واحدة
تصمت ذابلة شاحبة
هما في الناس زوج غريب

يقفان غير ناظرين لشيء
مصيبتهما: هو ابن مطرود
وهي حبيبته........

* * * *

ثم كان زمن ! ..... معها خلسة
شوهد الشاب في الجبال
يشرب نار السم حلوى
من قلقها، حديثها القصير
من عينيها المطرقتين
عندما من عتبة البيت
نظرت إلى الطريق
فيحدثه بمرح ودي-
وفجأة تجلس وتشحب
ومجيبةً غير ناظرةٍ
التهبت كالفجر-
أم عندما وقفت قرب المياه
المتدفقة من القمم الصخرية
وملأت طويلاً مع موجة رنانة

إبريقاً مزخرفاً

وهو بلا حيلة

أسير اضطراب قلبه، مرةً يأتي

إلى أبيها، يمسكه

ويقول: "من زمن لي

ابنتك حبيبة. ومن قدم أحيا

شغفاً بها، وحيداً منفرداً

بارك حبي

أنا فقير ولكن قوي وفيّ

العمل سهل علي، عن مترلنا

أبعد الجوع الأعجف

سأكون لك ابناً وصديقاً

مطيعاً خاضعاً وعطوفاً

ولأبنائك صديقاً موثوقاً

ولها زوجاً عضيداً".

....



نافورة بقجة سراي

قصة شعرية كتبها بوشكين منذ عام ٨٢١ وأنــــهاها علم ١٨٢٣ونشرت في العام التالي. وهي تتحـــدث عن سبي خان القرم التتري (كريم جيراي) للأمـــيرة البولونية (ماريا بوتوتسكايا) وهي أيضـــاً موضـــوع قصيدة سابقة.

وقد صُدِّرت القصيدة بمقطع من قصيـــــدة الشـــاعر الفارسي سعدي شيرازي (القرن ١٣م) - (البستان).

❋ نافورة بقجة سراي ❋

كثيرون مثلي تماماً زاروا
تلك النافورة ولكن بعضهم
ماعادوا يوجدون وآخرون
يرحلون لأبعد.

سعدي[1]

جلس جيراي مطرق النظر
وقد دخَّن الكهرمان من ثغوره
والحاشية الذليلة احتشدت
صامتة حول الخان الحزين
كل شيء كان ساكناً في القصر
قرأ الكل بتهيب
علامات الغضب والحزن

---

[1] الشاعر الفارسي سعدي شيرازي (القرن ١٣م)

على وجهه المتجهم

ولكن الأمير المتكبر

أشار بيدٍ عجلى

فانصرف الكل منحنياً

* * * *

وحيدٌ هو من قصوره

يتنهد من صدره الطليق

جبينه العابس ناطق

يعبر عن قلق قلبه

كما تنبئ المزن الهوجاء

عن سقوط الزجاج المتقلقل.

* * * *

ما الذي يحرك نفسه الأبية؟

وبأية أفكار هو مشغول؟

هل ستقوم الحرب مجدداً على الروس

وتحمل إلى بولندا استقلالها

هل ستحترق بالمواقع الدموية

هل ابتدأت في القوات الدسائس

وهل يأسون لمصائب الشعوب

أم أنها دسائس جينوي المخادع؟

* * * *

لا، لقد ملّ من المجد الرخيص

تعبت يده الشديدة

والحرب عن أفكاره بعيده

* * * *

أيعقل أن من حريمه خيانة

وفي طريق الخيانة سارت

ابنته رغماً عن التنغم والحَجرْ

أعطت للكافر قلبها؟

* * * *

لا يا نساء جيراي الحبيّات

لا تفكرن، لا تأملن، لا تتجرأن

أن تزهرن في الهدوء الكئيب

تحت الحراسة اليقظة الباردة

وفي أحضان الملل الكئيب

لا يرون خيانةً

مخفيٌّ جمالهن

في ظلال الظلمة الخافرة:

هكذا أزهار الجزيرة العربية

تعيش خلف زجاج الدفيئة

تمر عليهن في تتابع كئيب

الأيام والأشهر والسنون

ينقضي الشباب والحب

دون أن يشعرن

متشابهةٌ الأيام

ومجرى الساعات بطيء

تجري الحياة في الحريم بتثاقل

تتضاءل المسرات حتى الندرة

الزوجات الفتيات، كيفما اتفق

رغبة في خداع النفس

يبدِّلن الملابس الفاخرة

يمارس الألعاب والأحاديث

أو عند ضوضاء المياه الحية

فوق تيارها الشفاف

في برودة الجميز الكثيف
يتمشين أسراباً خفيفة
بينهن يمشي طواشيٌّ شرير
لا يجدي التهرب، منه:
نظراته وسمعه الحاسدة
تتبع الجميع كل ساعة
بمساعيه أدخل
نظامٌ أبدي. إرادة الخان
قانونه الوحيد
وصية القرآن المقدسة
لا يتبعها بصرامة
روحه لا ترجو المحبة
يتحمل كالضيم
الهزءُ والكرة والتأنيب
وإزعاجَ العبث بلا استحياء،
والأوامر والنظرة الوجلى والازدراء
والنفسَ الهادئ والتضجر الفاتر
معروفةٌ لديه رغبات النساء

اختبرها بقدر ما لديه من دهاء
في الحرية أم في العبودية
النظرة الحنونة ولوم الدموع الصامت
لا تؤثر في روحه
فهو لم يعد يثق بهن أكثر

* * * *

ناثراتٍ شعرهن الهفهاف
تذهب السبيات الفتيات
يسبحن في ساعات القيظ
ويسكبن أمواج النبع
على جمالهن الآخاذ
ناسيات حارسهن الملازم
هناك هو، يشاهد خالي النفس
سرب الحسناوات العاريات
في ظلمة الليل يتسكع
بخطوات خافتة في الحريم
ماشياً بهدوء على السجاد
يسترق الأبواب على الخانعات

من شرفة لشرفة يتنقل
في مهمته الأبدية ، يراقب
نوم زوجات الخان البهي
يتنصت ليلاً للتمتمة
وللتنفس وللتنهد ولأقل خفقة
يلاحظ كل هذا بنهم
والمصيبة عندما ينادي
همسٌ الأحلام اسماً غريباً
أو يفضي بأفكاره الفاسقة
لصديقته العطوفة!

* * * *

ما الذي يملأ الحزن فكر جيراي
حمد الشبوق في يديه
لا يتحرك ولا يقدر أن يرتاح
عند الباب الطواشي ينتظر إشارة
ينهض السيد الشارد
أمامه الباب على مصراعيه، يدخل
صامتاً إلى المخدع المصان

إلى الزوجات اللواتي كن حبيبات

* * * *

بلا اكتراث، منتصراتِ الخان

حو ل النافورة اللعوب

على السجاجيد الحريرية

جلسن زرافات رشيقة

ونظرت بفرح طفولتي

كالسمكة في العمق الساطع

تمشي على القاع الرخامي

وأخريات أسقطن عمداً

إلى القاع أقراطاً ذهبيةً

وحولهن الجواري خلال ذلك

حملن الشراب العطري

وفجأة شدا كل الحريم

بأغنية بصوتٍ جميل:

"الأغنية التترية"

- ١ -

"تهب السماء للإنسان

عوضاً عن الدموع والمصائب الكثيرة:
محظوظٌ الفقيرشاهد مكة
في كهولة العمر الحزين

- ٢ -

محظوظٌ من كرَّس موته
لشاطئ الدانوب المجيد:
ستطير إلى لقائه
مع ابتسامة حورية الجنة

- ٣ -

لكن ذلك المحظوظ يا زريمة
هو من، محباً الأمن والرفاهية
كالزهرة في هدأة الحريم
يداعبك متلاطفاً".

* * * *

هن يغنين ولكن اين زريمة
نجمة العشق حسناء الحريم؟
أفٍ، حزينة وشاحبةً

هي لا تسمع المديح

كالنخلة اكتسحتها العاصفة

أخرجت رأساً جديداً

لا شئ، لا شيء يبهجها:

جيراي قد هجر زريمة

* * * *

خانَ .... لكن من يساويكِ

بالجمال يا جورجية؟

حول جبينك الليلكي

لففت جديلتك مرتين

عيناك الآسرتان

أسطع من النهار، أقتم من الليل

أي صوت يعبر أقوى

من ثورة الرغبات الملتهبة؟

أي قبلةٍ مشبوبة أكثر حيوية

من قبلاتك اللاذعة؟

كيف يخفق القلب المليء بك

لجمال غريب؟

ولكن جيراي اللا مبالي

الفظ، قد أهمل حُسْنكِ

ويمضي ساعات الليل الباردة

متكدِّراً وحيداً

منذ أن دخلت حريمه

الأميرة البولونية

* * * *

حديثاً رأت ماريا الفتية

سماء غريبة

حديثاً أزهر جمالها الحنون

في بلادها الحبيبة

والدها الشيخ، مفتخراً بها

دعاها سلواه

وكانت إرادة الفتاة

للعجوز كالقانون

لم ير إلا همّاً وحيداً

أن يكون حظ الابنة الحبيبة

ساطعاً مثل يومٍ ربيعي أن لا تعذب روحها

لحظات حزينة

أن تتذكر بحنان

حتى بعد الزواج

زمن الصبا وأيام اللهو

اللواتي خطرت كالحلم الخفيف

كل شيء فيها يأسر: الطبع الهادئ

المشية المنتصبة والحيوية

والعينان الزرقاوتان القاتمتان

وقد جمَّلت هدايا الطبيعة

الحنون بالفن

وأحيت المآدب المترلية

بقيثارتها الساحرة

جميع الوجهاء والأثرياء

بحثوا عن أيدي ماريا

وكثير من الشباب حولها

ناءوا بمعاناةٍ في خفية

ولكن في هدوء نفسها

لم تعرف العشق بعد.

وأوقات الفراغ الحرة

في قصر الأب بين الصديقات

للّهو وحده كرَّستها

* * * *

أمن زمنٍ بعيدٍ؟ وإلى متى! ليل التتار

يتدفق على بولندا كالأنهار

ليس بهذا القدر من السرعة الفظيعة

تنتشر في الحصيد النار

هُجِر البلد المزهر

واختفت الملاهي الطمئنة

واكتأبت القرى وغابات البلوط

وخوى القصر الفخم

ماريا الوضاءة هادئة

في الكنيسة العامرة، حيث طوها

ترقد في نومٍ باردِ الرمم

ظهر ضريح جديد

ذو تاجٍ وشعار أمير.......

الأب في القبر، الابنة في الأسر

والوارث البخيل يحكم في القصر
ويُذل البلاد المجتاحة
بنير ثقيل

* * * *

أفٍ، يخفي قصر بقجة سراي
الأميرة الشابة
ماريا تبكي وتأسى
في الأسر الهادئ ذابلة
يشفق جيراي على البائسة:
انكسارها ودموعها وأنينها
تقلق نوم الخان القصير
ولأجلها يخفف
قوانين الحريم الصارمة
حارس زوجات الخان المتهجّم
لا في النهار ولا في الليل يأتيها
وليس هو الذي يحملها
بيد العناية إلى فراش النوم
ولا يتجرأ أن يرنو إليها

بنظرة غضب من عينيه
وهي في الحمام السري
وحدها مع جاريتها
الخان نفسه يخشى أن
يقلق الراحة الحزينة للفتاة الأسيرة
مسموحٌ لها أن تعيش لوحدها
في المكان القصي من الحريم:
متوهّماً أنه في تلك العزلة
قد اختبأ شخص ملائكي
هناك نهاراً وليلاً يشتعل القنديل
أمام وجه الفتاة المسبية
سلوى للنفس المعذّبة
هناك تقطن، راكنةً إلى الصمت
في ثقة ذليلة
تذكّر قلبها بكل شيء
عن المحبّب والمفضّل
هناك تسكب الفتاة الدموع ـ
بعيداً عن الصديقات الحاسدات

وخلال ذلك حولها
يغرق الكل في هناء مجنون
يخفي بتقديسٍ شديدٍ
الركن الذي أنقذ بأعجوبة
هكذا القلب مضحيّاً بالسعادة
وسط السرور الفاجر
يحفظ واجباً مقدساً واحداَ
وشعوراً إلهياً واحداً

....

....

* * * *

حل الليل، تغطت بالظلال
حقول توريدا* الجميلة
بعيداً تحت ظلال الغار الهادئة
أسمع غناء البلابل
ومن خلف جوقة النجوم يطلع القمر
هو من السماوات الصافية

---

* الاسم اليوناني القديم لجزيرة القرم

يضفي ضياءً خافتاً

على الوديان والتلال والغابات

تراءت مثل ظلال خفيفة

مغطاة بغشاوة بيضاء

في شوارع بقجة سراي

من بيت لبيت، واحدة خلف أخرى

زوجات التتار البسطاء

يستعجلن تقاسم أوقات الفراغ المسائية

هذا القصر، نام الحريم

مشمولاً هناءٍ مطمئن

هدوء الليل

لا يقطعه شيء. والحارس الأمين

الطواشي، خرج عاسًّاً

والآن ينام، لكن الرعب المقيم

يثير فيه حتى الروح الغافية

ترقُّب الخيانة الدائم

لا يعطي عقلة الهدوء

فحيناً حفيفٌ أو همسٌ

يخيَّل إليه، أو صراخ

مخدوعاً بسمعه الخاطئ

يفيق مرتعشاً

ولكن كل شيءٍ حوله ساكن:

وحدها النوافير بصوت عذب

من عتمة المرمر تضرب

وبلبلٌ في الظلمة يغنِّي

غير مفارقٍ زهرة لطيفة.

مضى على الطواشي وقتٌ طويلٌ ينصت

ثم أخذه النوم ثانية

* * * *

كم هي لطيفةٌ المحاسن المبهمة

لليالي الشرق البديع!

كم حلوة تنساب ساعاتها

لأتباع النبي!

أيُّ هناءٍ في بيوتهم

في حدائقهم الأخاذة

في سكون الحريم الآمن

حيث تحت تأثير القمر

يكون الكل مملوءً غموضاً وسكينة

وإلهامات لذيذة!

* * * *

كل النساء نائمات، لا تنام واحدة

بالكاد تتنفس، تنهض

تسير، وبيد عجلى

تفتح الباب، وفي ظلمة الليل

تتقدم بخطىً خفيفة.......

أمامها مستلقٍ الطواشي الأشيب

في نومٍ خفيفٍ مضطرب

آهٍ، القلب منه لا يرحم:

فسكونه يوهم بالنوم ! ......

كالشبح تمر بقربه.

....

* * * *

أمامها بابٌ، بارتباكٍ

لا مستْ يدها المرتعشة

القفل الموثوق.....

دخلت، تنظر باندهاش......

ويخترقها رعب خفي

قناديل النور الموحش

تومئ، حزيناً يبدو

وجه الفتاة الوديعة الطاهر

والصليب، عنوان الحب المقدس

كل هذا يا جورجية أيقظ في روحك

شيئاً ما مألوفاً

تحدث الكل فجأة بإبهام

بأصوات الأيام المنسيَّة

أمامها ترقد الأميرة

وقد انتعشت وجنتاها

بحرارة النوم العذري

واستنارت بابتسامة فاترة

تاركاً دمعها أثراً طرياً

هكذا ينير ضوء القمر

بمطر من نور ثقيل:

هابطاً من السماء، ابن آدم

بدا كأنما ملاكٌ يرقد

و، حالماً، سكب الدموع

على سبية الحريم التعيسة.......

أف زريمة ما دهاك ؟

ضاق صدرك من كآبتها

بلا وعي تركعين بركبتيك

وتصلّين: "اشفقي علي

لا تردّي توسلاتي !.....

كلماها، حركاها، أنينها

قطعت نوم الفتاة الهادئ

ترى الأميرة برعبٍ أمامها

فتاةً غريبة

باهتياج رافعة يدها المختلجة

تقول: "من أنت ؟ ....

وحدكِ في الليل،

لماذا أنت هنا؟" - جئت إليكِ

أنقذني ، بقي لي

في حياتي أملٌ واحدٌ

تنعمت طويلاً بالسعادة

كنت غافلة من يوم ليوم.........

تغير ظل السعادة

أنا أهلك، اسمعي لي

* * * *

لم أولد هنا، بل بعيداً

بعيداً .... ولكن الأيام الغابرة

محضورة بعمقٍ أشيائها

في مخيلتي حتى الآن

أذكر الجبال في السماوات

السيول العنيفة في الجبال

غابات البلوط الكثيفة

قانون آخر، عادات أخرى

ولكن لماذا هذا المصير

أن أغادر بلدي الحبيب

لا أعرف، أذكر فقط البحر

وشخصاً في الأعالي

فوق الأشرعة......

رعب وبلاء

حتى ذلك كان غريباً عني.

في السكون المطمئن

في ظلال الحريم ازدهرت

وأولى تجارب الحب

انتظرتُ بقلبٍ خاضع

رغباتي الخفية تحققت

جيراي رغبةً في الهناء المطمئن

كرة الحرب الدموية

قطيع الغزوات الرهيبة

ونظر ثانية إلى مريمه

كنا جميعاً أمام الخان

في انتظار مضطرب

توقف عليّ بنظرة مشرقة في صمت

دعاني .... ومن ذلك الحين

كنا في سرور لا ينقطع

تنفسنا السعادة، ولا مرة

أزعجتنا وشاية أو ريبة

أو ألم لحسد الشرير

ولا الضجر

ماريا! ما أن ظهرتِ أمامه......

أفٍ، منذ ذلك الحين تكدَّرت

روحه بأفكار أثيمة!

جيراي متنفساً الخيانة

لا يسمع عتابي

لقد أضجره أنين قلبي

ما عاد يشاطرني

لا المشاعر اللطيفة ولا الأحاديث

أنت لم تشتركي بالجريمة

أنا أعرف: ليس ذنبك......

ولكن اسمعي: أنا جميلة

في كل الحريم أنت وحدكِ

يمكن أن تكوني خطرة علي

ولكنني ولدت للهوى

وأنت لاتقدرين أن تعشقي مثلي

لماذا تكدَّرين قلبك الضعيف

بجمالٍ بارد؟

أتركي جيراي لي: هو لي

علي تلتهب قبلاته

لقد أعطاني إيماناً فظيعة

قديماً، كل أفكاره، كل آماله

تقاسمها معي جيراي خيانته تقتلني......

أنا أبكي، انظري: أنا راكعة

وها أنا أنحني أمامك

أتوسل، لا أقدر أن ألومك

أعطني السعادة والطمأنينة

أعطني جيراي السابق......

لا تعارضيني بشيء

هوَ ليّ لكنه أعمى بحبك

بالكره ، بالرجاء، بالملل

بما تريدين صدِّيه

أقسمي ...... (ولو أنني لأجل القرآن

بين سبيات الخان

نسيت عقيدتي القديمة

ولكن عقيدة أمي كانت

عقيدتكِ)، أقسمي لي أن:

زريمة سوف تسترجع جيراي.....

وإلا فاسمعي: إذا كنت مدينةً لكِ.......

فإني أجيد استعمال الخنجر

فأنا مولودة قرب القوقاز"

* * * *

تحدثت ثم اختفت فجأة

لا تستطيع الأميرة أن تتعقّبها

لم يكن مفهوماً للفتاة البريئة

حديث الأشواق المعذبة

لكن أصواتها بإبهامٍ تناهت إليها

كانت غريبة، كانت مرعبة

أية دموع وتوسلات

ينقذونها من العار؟

ماذا ينتظرها؟ هل تمر عليها

بقايا أيام الشباب المرّة

منبوذة مكروهة؟

يا إلهي! لو أن جيراي

نسيَ المنكودة طويلاً

في ظلمتها القصيَّة

أو بنهاية سريعة

توقف مسار أيامها الكئيبة!

إذاً، بأية سعادة غادرت

ماريا الدنيا الحزينة!

لحظات الدنيا العزيزة

مرَّت قديماً، منذ زمن لا توجد!

ماذا تفعل في صحراء الدنيا؟

هل حان وقتها، هل ينتظرون ماريا

ويدعونها إلى السماوات

إلى أحضان الكون بابتسامة أليفة

....

* * * *

مرت الأيام، لا وجود لماريا

فجأة قضت اليتيمة

مثل ملاك جديدٍ أنارت

الدنيا التي اشتهتها قديماً

ولكن ماذا أنارت في ضريحها

أحسرةُ الرقِّ اليائس ،

المرضٌ أم بلاءً آخر؟

من يعرف؟ لا وجود لماريا اللطيفة! ......

فرغ الصبر الكالح

هجرة ثانية جيراي

توَّجه ثانيةً في غزوة شريره

مع جموع التتار في أنحاء غريبة

ثانيةً في عنف المعارك

يندفع عابساً متعطشاً للدماء

لكن، في قلب الخان مشاعرٌ أخرى

تختبئ كلهبٍ مكرب

كثيراً هو ما يرفع سيفه بعزم

في المعارك المصيرية

وفجأة يبقى بلا حراك

ينظر دون وعي حوله

يشحب كأنه مليء بالرعب

ويهمس بشيءٍ ما، وأحياناً

تسيل الدموع الحارة أنهاراً

الحريم منسي، مهجورٌ باحتقار

لا يرى وجهه

هناك تهرم الزوجات

مقضياً عليهن بالكآبة

تحت حراسة طواشي بارد

منذ زمن لم تعد بينهن الجورجية

ألقاها حراس الحريم لخرس

في لجة الماء

في تلك الليلة عندما ماتت الأميرة

تحققت أيضاً مصيبتها

وأياً كان ذنبها

كان مريعاً عقابها

* * * *

عاد الخان إلى توريدا

مكتسحاً بنار الحرب

القوقاز والبلاد القريبة

وقرى الروس المسالمة

ولذكرى ماريا البائسة

أقام نافورةً مرمرية

في زاوية القصر المنعزل

وفوقها صليب يظلّل

الهلال المحمدي

(شعارٌ، طبعاً جريء

بسبب الجهل المؤسف)

وهناك توقيع: لم تُنْسِني

إياها السنين المريرة

من خلف معالمها الغريبة

ينسكب الماء على المرمر

ويقطر دموعاً باردة

لا تصمت أبداً

هكذا تبكي الأم، أيام الحزن

على ابنها الساقط في الحرب

الفتيات الشابات في تلك البلاد

عرفن القصة القديمة

وقد أحيين ذكراها الحزينة

بنافورة من دموع

مغادراً الشمال أخيراً

ناسياً المآدب طويلاً

زرتُ في بقجة سراي

القصر الحالم المنسي

تسكعت هناك بين الممرات الصامتة

حيث مأساة الشعوب

قد أولمها التتري العنيف

وبعد مآسي الغزو

أغرقها في كسل البحبوحة

ما يزال الهناء حتى الآن يتنفس

في جراتها الفارغة والحدائق

تلعب المياه، تحمرُّ الورود

وتعرش دوالي العنب

ويتلألأ الذهب على الجدران

رأيت المشربيات المتقوّضة

والتي خلفها، في ربيعهن ، تنهدت

الزوجات في السكينة

منتقيات مسابح الكهرمان

رأيت مقبرة الخان

صاحب المترل الأخير

تلك الأعمدة فوق الضريح

متوجة بعمامة فوق مرمرية

بدى لي أنها وصية القدر

تحدثت بكلام صريح

أين اختفى الخانات؟ أين الحريم

الكل هادئ، الكل كئيب

الكل تغَّير .... ولكن ليس ذاك الذي

خفق القلب له بألم قديماً

تنَّفس الورد وضجيج النوافير

تعود إلى نسيان لا إرادي

استسلم العقل بلا إرادة

لقلق ليس له تفسير

وعبر القصر خطرتِ فتاةٌ

أمامي ظلاً طائراً !....

* * * *

أي شبح يا أصدقائي شاهدت

أخبروني: لمن الشكل اللطيف

تبعني حينها

لا يُرَد ولا يُقاوم؟

هل روح ماريا النقية

ظهرت لي أم زريمة

خطرت تنفث غيرةً

وسط الحريم الفارغ؟

* * * *

أنا أذكركم كانت نظرةً حنونةً

وأيضاً جمالاً دنيوياً

كل خواطر القلب تطيرإليها

وعليها في المنفى أتحسَّر.....

مجنونٌ ! أحقاً! توقف ،

لا تعش حنيناً بلا فائدة

ستدفع منك أتاوةً

أحلام مضطربة عن الحب التعيس

أفق: أطويلاً أيها السجين الساجي

تقبّلك الأغلال

وفي العالم، بقيثارة بذيئة

تكشف عن جنونك؟

* * * *

عابداً موزاً، عاشقاً الدنيا

ناسياً المجد والحب

أشاهد ثانية قريباً

شواطئ سالجيرا المرحة!

وأحضر إلى منحدر الجبال الساحلية

مفعماً بالذكريات السرية

وتبهجُ نظري النهم

ثانيةً أمواج القرم

بلدٌ ساحرٌ! متعة العين!

كل شيءٍ حيٌ هناك: تلال، غابات

كهرمان وياقوت الكروم

الجمال الأخاد للسهول

وبرودة الجداول والحور

الكل يجذب شعور المسافر

عندما، في ساعة الصباح الهادئ

في الجبال، على الطريق الساحلية

يعدو حصانه الحبيب

والمياه المخضَّره

تتلألأ أمامه وتزمجر

حول صخور (أيو داغ)



الغجر

قصة شعرية من أشهر ما كتبه بوشكين. بدأ كتابتها في اوديسا وأنهاها في المنفى للشمالي عام ١٨٢٤. ومن المعروف أن بوشكين قضى عدة أيام مع إحدى قبائل الغجر في مولدافيا كما اخبر بذلك أخوه. وقد ذكر ذلك بوشكين نفسه في هذه القصة الشعرية:

كثيراً ما تسكعت في البراري
خلف حشودهم المتكاسـلة
قاسمتهم طعامهم البسـيط
وغفوت أمام نيرانهـم

❋ الفجر ❋

يترحَّل الغجر عبر بيسارابيا

بحشودٍ صاخباتٍ

يقضون الليل هذا اليوم عند النهر

في خيامٍ ممزقة

كالحرية مبيتهم مبهجٌ

ومطمئنٌ نومهم تحت السماوات

البسط متدلية

بين عجلات العربات

النار تشتعل: العائلة حولها

تهيء العشاء: الخيل ترعى

في الحقل الأجرد، وخلف الخيمة

يستلقي طليقاً دبٌ مدَّجن

كل شيءٍ رائعٍ وسط السهوب:
مشاغل العائلات المطمئنة
المتهيئة لسفر قريب من الصباح
وغناء النساء وصراخ الأطفال
ورنين السنديان النقال
ولكن هاهي تهبط على المخيم الغجري
سكينة الليل
ولا يسمع في هدأة السهوب
إلا عواء أو حمحمة الخيل
خمدت النار في كل مكان
كل شيء هادئ، يسطع القمر
وحيداً في كبد السماء
ويضيء المخيم الهادئ
في الخيمة وحدة الشيخ لا ينام
يجلس أمام الفحم
مُشعلاً آخر لهب فيه
ناظراً إلى الحقل البعيد
المغطى بسدم الليل

ذهبت ابنته الفتية

تتمشى في الحقل الأجرد

لقد اعتادت على الحرية اللعوب

تعود، لكن حلَّ الليل

وقريباً سيهجر القمر

سماء السحب البعيدة-

ليست هنا زمفيرا، إذن

سيبرد عشاء العجوز البسيط

* * * *

ها هي وفي إثرها شاب

غريب تماماً عن الغجر

يحث الخطا في السهب

تقول الفتاة "أبتِ

أحضرت ضيفاً، وجدته

في الأرض الفضاء خلف الرابية

فدعوته إلى المخيم للمبيت

هو يرغب أن يصبح مثلنا غجرياً

فالقانون يطارده

ولكني سأكون صديقته
اسمه أليكو، وهو مستعدٌ
أن يذهب خلفي كل مكان"

العجوز.

أنا مسرور، ابقَ حتى الصباح
في ظل خيمتنا
أو ابق عندنا لأكثر
كما ترغب فأنا مستعدٌ
أن اقتسم معك الخبز والدم
كن منا، اعتدْ على حياتنا
على تعاستنا الجوَّالة وحريَّتنا
وغداً منذ الفجر
في عربةٍ واحدة سنسافر
اختر أية صنعة:
طَرْقَ الحديد أو الغناء
أو أن تمر على القرى بالدب

أليكو:

سأبقى

زمفيرا:

سيكون لي:

من ترى سيبعده عني؟

ولكن الوقت تأخر .... غاب الهلال

الحقل مغطىً بالضباب

والنوم يحنيني رغماً عني

* * * *

ألقَ، يطوف الشيخ بصمتٍ

حوِل الخيمة الصامتة.

أفيقي زفيراً: الشمس تشرق

أفق يا ضيفي! حان ! حان الوقت! ....

اهجروا يا أطفال فراش الكسل "! ...

بصخبٍ أفاق الشعب

جُمعت الخيام، والعربات

جاهزة للاندفاع في المسير

الكل ارتحل معاً: وها هو الحشد

يسير في السهول الجرداء

الحمير تحمل الأطفال اللاهين

في المقاطف السفرية

الرجال والفتيان، النساء والفتيات

الكهل والفتي يسير في الأثر

صراخ، صخب، أغانٍ غجرية

زمجرة الدب، قعقعة

سلاسله المزعجة

برقشة الأسماك الواضحة

عري الأطفال والشيوخ

عواء الكلاب ونباحها

حديث الناس، صرير العربات

كل شيء بسيط، وحشيٌّ، الكل فوضى

ولكن الكل أيضاً بنشاطٍ متحرك

هكذا هي عجيبة سعادتنا الفانية

هكذا هي عجيبة هذه الحياة الحافلة

مثل أغاني العبيد الرتيبة

* * * *

بذبولٍ نظر الشاب

إلى السهل الخالي

و لم يستطع أن يبعد عن نفسه

حزناً خفي الأسباب

معه سوداء العينين زمفيرا

وهو الآن حراً يحيا الدنيا

والشمس فوقه بابتهاج

تسطع في الظهيرة رائعة

لِمَ ترى يخفق قلب الفتى

بأيّ همٍ هو مثقل؟

الطائر الإلهي لا يعرف

لا همّاً ولا عملاً

لا يجهد في بناء عشٍ

يدوم طويلاً

في الليل الطويل على الغصن يغفو

تبزغ الشمس الحمراء

تنصت الطير لصوت الإله

تنتفض ثم تغني للربيع

لجمال الطبيعة

ينقضي الصيف القائظ

ويجلب الخريف المتأخر
الضبابَ والطقس الممطر:
للناس الكآبة، للناس الحزن
يطير الطائر حتى الربيع
إلى البلاد البعيدة
إلى البلد الدافئ
خلف زرقة البحر

مثل الطير بلا مشاغل
هو أيضاً مبعدٌ مهاجرٍ
لم يعرف عشاً وثيقاً
ولم يعتد على أي شيء طريقه
كان إلى كل مكان
وأي مكان كان فراش نومه
ناهضاً في الصباح
يسلّم نومه لمشيئة الإله
ولم تستطع هموم الحياة
أن تعكّر هدوء قلبه

أحياناً تخدعه النجمة البعيدة

بمجدٍ سحري

تبدّت له أحياناً

بلا انتظار النعمى والسلوى

وليس نادراً أن تنزل صاعقة

فوق رأسه وحيداً

وبلا اكتراث تحت العاصفة

حَلُمَ بالطقس الجميل

وعاش غير معترف بسلطة

القدر الغادر الأعمى

ولكن ربّاه ! كم لعبت الأهواء

بنفسه الطيّعة!

بأي اهتياج غَلَت

في صدره المتعب!

أمن أحدٍ إلى أمدٍ قد خمدتْ؟

هي تستيقظ: فانتظر

* * * *

زمفيرا: أخبرني صديقي: ألا تأسف
للشيء الذي هجرته للأبد؟
أليكو:
ماذا هجرتُ يا ترى؟
زمفيرا:
أنت تفهم:
مواطَنَةَ الناس، المدن
أليكو:
لأي شيء أتأسف؟ عندما تعرفين
عندما تميزين
عبودية المدن الخانقة!
هناك الناس أكداساً خلف سياج
لا يتنفسون نسيم الصباح
ولا عطر المروج الطبيعي
يخجلون من الحب، يقهرون الفكر
يتاجرون بحريتهم
يطأطئون رؤوسهم للأوثان
ويتسولون النقود والأغلال

ماذا هجرت، خيانة الشاعر

الأحلام الباطلة

القسْرَ المجنون للناس

أم العارَ الفاضح

زمفيرا:

ولكن هناك القاعات العظيمة

هناك السجاد المختلف الألوان

هناك الألعاب، المآدب الصاخبة

ألبسة الفتيات الفخمة جداً جداً ! .....

أليكو:

هل صخب المدينة مرح؟

حيث لاحب، ولا وجود للمرح

أما الفتيات ...... فأنت تفضلينهن

حتى دون ألبسة فاخرة

ودون جواهر ودون قلائد!

لا تتغيري يا صديقتي اللطيفة!

أما أنا ...... فرغبتي الوحيدة

أن أقتسم معك الحب ووقت الفراغ

والنفي الإرادي!

العجوز:

أنت تحبنا مع أنك مولود
بين القوم الأثرياء
لكنها ليست دائماً عطوفة الحرية
لمن قد اعتاد على الهناء
تدول بيننا حكاية:
أرسل القيصر يوماً في الظهيرة
مواطناً منفياً إلينا
(كن أعرف اسمه)
الغامض، لكني نسيت)
كان بالعمر شيخاً
لكنه فتيٌ ونشيط الروح وديع
أجاد الغناء بموهبة مدهشة
وصوته شبيه بهدير الماء
الكل أحبه
عاش على شواطئ الدانوب
لا يغضب أحداً

فاتناً الناس بالحكايا

لم يفقه أي شيء

كان ضعيفاً وهياباً كالأطفال

لأجله اصطاد الناس الغرباء

الوحوش والأسماك بالشباك

ما إن تجمد النهر السريع

وعصفت أعاصير الشتاء

حتى غطوا بالفرو

الشيخ الطاهر

تحوّل ذابلاً شاحباً

يقول إن الرب الغاضب

عاقبه على خطيئة..........

انتظر:هل سيأتي الخلاص

تعيساً حتى لكل شيء

متسكعاً على شواطئ الدانوب

ويسكب دموعاً حارة

متذكراً بلدته البعيدة

وأعلن أنه مات

أن يحملوا إلى الجنوب

عظامه المشتاقة

لدفنها في هذه الأرض الغريبة

كأنها ضيوف غير مطمئنة

أليكو:

أهذا هو مصير أبناءكِ

باروما، يا دولة عظمى....... !

مغنيّة الحب، مغنية الآلهة،

أخبرني ما يكون المجد؟

نواح القبر، نداء المديح

صرخةٌ تنتقل من جيل لجيل

أم أنه حديث الغجر البدائي

في ظل غيمةٍ دخناء؟

* * * *

مضت سنتان، ما زال الغجر

يتجولون بحشودٍ مسالمة

أينما ذهبوا يجدون كالعادة

حسن الضيافة والأمان

مثلهم أليكو طليق

مزدرياً مباذل المدينة

بلا مشاغل أو تحسر

يمضي الأيام المترحلّة

دائماً هو هكذا، العائلة دائماً هيَ

هو حتى لا يذكر الأيام الماضية

اعتاد على الحياة الغجرية

لقد أحب ظلال بيوتهم

وحبور كسلهم الأبدي

ولغتهم الفقيرة الرنانة

الدب، هاجراً وجاره الليف

أصبح ضيف خيمته الأشعث

في القرى على جانبي الطريق السهلي

قرب بوابة مولدافيا

أمام الحشود الحَذِرة

يرقص متثاقلاً ويجأر

ويقرض سلسلته المزعجة

يضرب العجوز بالدفّ في تكاسل

متكئاً على عكاز للمشي

أليكو يقود الدب ويغني

زمفيرا تطوف على القرويين

وتأخذ عطاءهم الطوعي

خيّم الليل، الثلاثة كلهم

يطبخون دخناً طرياً

نَعَسَ الشيخ، لكل ساكن.......

وفي الخيمة هدوء وعتمة

* * * *

الشيخ في الشمس الربيعية

يسخّن دمه الذي يَرَدْ

وابنته على الأرجوحة تغني للحب

يستمع إليها أليكو فيشحب:

زمفيرا:

زوجي العجوز، زوجي القاسي

اذبحني، احرقني

أنا صلبة لا تخيفني

لا السكين ولا النار

أنا أكرهك

أحتقرك

أن أحب غيرك

أموت حياً

أليكو:

اصمتي. لقد سئمت من الغناء

أنا لا أحب الأغاني الهمجية

زمفيرا:

لا تحب؟ وما يهمني!

أنا أغني لنفسي:

اذبحني، احرقني

لن أخبرك شيئاً

زوجي العجوز، زوجي القاسي

لن تعرفه

هو أنضر من الربيع

أحَرّ من يومٍ صيفي

كم هو فتيٌّ وشجاع !

كم هو يحبني!

كيف دلَّلته

في سكون الليل!

وكم ضحكنا وقتها

في شيبتك!

أليكو:

اصمتي زمفيرا، أنا راضٍ......

زمفيرا! ......

أهكذا فهمت أغنيتي؟

أليكو:

زمفيرا! ....

زمفيرا:

أنت حرٌ أن تغضب

وأنا أغني عنك

(تخرج وهي تغني: زوجي عجوز ..... إلخ)

العجوز:

نعم، أذكر، أذكر: هذه الأغنية

وضعت في زماننا

ومن قديمٍ تغنَى بين الناس

في أوقات اللهو
متجولين في سهوب كاجولا
كان هذا في ليلةٍ شتوية
غنتها حبيبتي ماريولا
أمام النار هازةً ابنتها
في ذاكرتي تغدو الأيام الماضية
من ساعة لساعة أعتم فأعتم
لكن هذه الأغنية انغرزت
عميقاً في ذاكرتي

* * * *

كل شيءٍ هادئ، ليل، قبة السماء
الجنوبية الزرقاء مزدانة بالقمر
أيقظت زمفيرا الشيخ:
"يا أبت! أليكو فظيع
اسمع: خلال نومه العميق
يئن وينشج"

العجوز:

لا تلمسيه. الزمي الصمت

سمعت أسطورة روسية:

عندما يحين منتصف الليل

تجعل روح البيت التنفس ضيقاً

عند النائم، وعند الفجر

تذهب. اجلسي معي

زمفيرا:

أبتِ! إنه يهمس: زمفيرا!

العجوز:

إنه يبحث عنك حتى في الحلم

أنت له أغلى من الدنيا

زمفيرا:

لقد أصابني حبه بالغثيان

لقد سئمت، والقلب يطلب الحرية-

إني ..... لا، اهدأ! أنصت

إنه يذكر اسماً آخر.......

العجوز

أي اسم؟

زمفيرا:

اسمع؟ إنني أجش

وصرير حاد!....... كم هذا مرعب!

سأوقظه.......

العجوز:

بلا فائدة

لا تُطرد روح الليل

ستذهب من نفسها........

زمفيرا:

لقد استدار

نهض، يدعوني .... أفاق-

أنا ذاهبة إليه . وداعاً، نم.

أليكو:

أين كنتِ؟

زمفيرا:

جلست مع أبي

أية روحٍ أضنتك

لقد عانت روحك في النوم

العذاب، لقد أخفتني:

وأنت نائم صَرَرْت بأسنانك

ودعوتني

أليكو:

لقد حلمت بكِ

لفد رأيت كأنما بيننا.........

لقد رأيت أحلاماً مرعبة

زمفيراً:

لا تصدق الأحلام الخادعة

أليكو:

آه، أنا لا أصدق شيئاً:

لا الأحلام ولا اليقين

حتى ولا قلبكِ أنتِ

* * * *

العجوز:

لأي شيء، أيها الفتى المجنون

لأيٍ شيء دائماً تتأوه

الناس هنا أحرار، والسماء صافية

والنساء يتفاخرن بالحسن

لا تبك: ستقتلك الحسرة

أليكو:

أبِ إنها لا تحبني

العجوز:

اهدأ يا صديقي ، إنها طفلة

حزنك هذا لا تبرير له:

أنت تحب بمرارة وعسر

لكن قلب المرأة عابث

انظر: تحت السماء البعيدة

يتجول القمر الطليق

ماراً على كل الطبيعة

يسكب بالتساوي نوره

ينظر إلى سحابة

فيضيئها ببهاء

ومن ثم ينتقل إلى أخرى

وهذه لا يزورها طويلاً

من الذي يحدد مكاناً في السماء

ويأمره: قف هناك!

من الذي يقول لقلب الفتاة الشابة:

أحبَّ واحداً، لا تغيِّره!

اهدأ؟

أليكو:

كم أحبتني!

كم أمضت ساعات الليل

في السكون الصحرواي

بحنان مائلة إلي:

كم مراراً بلحظةٍ استطاعت

مليئة بفرح طفولي

أن تطرد وساوسي بلعثمة جميلة

أو قبلات مبهجة.... !

وماذا بعد؟ زمفيرا خائفة

زمفيرا التي غدت فاترة

العجوز:

اسمع: سأحدثك

بحكاية عن نفسي:

قديماً، قديماً، عندما لم يهدِّد

موسوكوبي بعد الدانوب
(كما ترى، يا أليكو، فإني
أتذكر الشجن القديم)
وقتها خفنا من السلطان
الذي حكمنا بالباشا بوجاك
من أعالي قرية أكرمان
كنتُ شاباً وكانت روحي
في ذلك الوقت تغلي بابتهاج
لم تبيضَّ بعد شيبة واحدة
في شعري الأجعد-
كانت هناك واحدة
بين الفتيات الجميلات......
مثل الشمس، تعشقها طويلاً
وفي النهاية سمَّيتها حبيبتي.

* * * *

آه، مرّ شبابي
سريعاً كنجمة واقعة!
انقضى زمن الحب بأسرع مما

كان ذلك لعام واحد فقط
أحبتني ماريولا.
مرةً قرب مياه كاجول
قابلنا ناساً غرباء
كانوا غجراً، نصبوا خيامهم
قرب خيامنا في الجبال
قضينا ليلتين معاً
ذهبوا في الليلة الثالثة
ذهبت معهم ماريولا
تاركةً ابنتها الصغيرة
نمت بسلام، تألق الفجر
أفقت من نومي فلم أجدها
بحثت ، ناديت – حتى أثرها اختفى
بكت ملتاعة زمفيرا
وأنا بكيت أيضاً ومنذ ذلك الحين
عافت نفسي كل نساء الدنيا
بينهن لم يختر نظري
أبداً صاحبةً

و لم أتقاسم مع أحد أبداً

أوقات فراغي المستوحدة

أليكو:

كيف لم تسرع وقتها

في أثر الجاحدة

و لم تغرز خنجراً في قلب

كل من السالب والخائنة؟

العجوز:

لأي شيء؟ لشباب أكثر حرية من الطير

من يقوى على إعاقة الحب؟

فالسعادة حق للكل بالدور

وما كان لن يعود ثانية

أليكو:

أنا لست هكذا . لا، أنا بلا جدال

لا أتراجع عن حقوقي

أو أرتاح بالانتقام

آه، لا: حتى إن وجدت عدوي

نائماً في لجة البحر

ولقابلت رعبَ الإيقاظ المفاجئ

بضحكة عنيفة

ولكان دوي سقوطه لأمد

مضحكاً لي ولذيذاً.

* * * *

الفتى الغجري :

واحدة أخرى، قبلة أخرى!

زمفيرا:

حان الوقت، زوجي غيور وشرير

الغجري:

واحدة ...... ليس أكثر! للوداع

زمفيرا:

وداعاً طالما لم يأتِ .

الغجري:

أخبرني متى اللقاء ثانية؟

زمفيرا:

اليوم، ما أن يأفل القمر

هناك خلف التل عند القبر.......

الغجري:

تخدعني! هي لن تأتي

زمفيرا

أهرب هاهو. جئت يا عزيزي.

* * * *

أليكو نائم وفي فكره

تلعب أفكارٍ غامضة ،

مستيقظاً، ومع صرخة في الظلام

يمد يده بغيرةٍ

ولكن اليد الممتدة

تمسك بالأغطية الباردة

صاحبته بعيدة ....

أفاق مرتجفاً وتنصَّت

كل شيء هادئ يشمله الرعب

يسري بداخله حرٌّ وبرد

ينهض، يخرج من الخيمة

مخيفاً يجول بين العربات

كل شيء ساكن، الحقول صامتة

عتمة، دخل القمر في الضباب
بالكاد تلفظ النجوم نوراً ضعيفاً
بالكاد يبدو أثر على الندى
يقود إلى التلال البعيدة:
يذهب مستعجلاً
إلى حيث يقود الأثر المشؤوم

* * * *

يلوح أبيضاً من بعيد
قبر على طرف الطريق
تقوده إلى هناك قدمان
ضعيفتان هاجسٍ مضنٍ
شفتاه ترتجفان، ركبتاه ترتعشان
يسير ...... وفجأة .... أم أنه في حلم
يرى فجأة ظلي متقاربين
ويسمع همساً قريباً
فوق القبر المدنّس

الصوت الأول

حان الوقت

الصوت الثاني

انتظري!_

الصوت الأول:

حان الوقت يا عزيزي

الصوت الثاني:

لا، لا، ! انتظري، فلننتظر النهار

الصوت الأول

لقد تأخرنا

الصوت الثاني

كم هو حبك متهيِّب

لدقيقة!

الصوت الأول:

أنت تهلكني

الصوت الثاني:

لدقيقةً!

الصوت الأول:

وإذا أفاق

زوجي بدوني.......

أليكو:

لقد أفقتُ

إلى أين؟ لا تستعجلا كلا كما ،

حسنٌ لكما هنا أيضاً عند القبر

زمفيرا:

صديقي، أهرب، أهرب

أليكو:

قف!

إلى أين أيها الفتى الجميل؟

أرقد

(يغرز فيه سكيناً)

زمفيرا:

أليكو!

الغجري:

أنا أموت

زمفيرا:

أليكو: أنت تقتله؟

أنظر: أنت كلك ملوث بالدم!

آه، ماذا فعلت؟

أليكو:

لا شيء

تنفسي الآن حبه

زمفيرا:

لا، أبداً لا أخافك

أحتقر تهديداتك

ألعن جريمتك

أليكو:

موتي أنت أيضاً

(يطعنها)

زمفيرا:

أموت عاشقة.

* * * *

استنار الشرق بالفجر الطالع

وأليكو خلف المرتفع

جالساً على حجارة القبر

والسكين في يده مدمًى

استلقت أمامه جثتان

كان وجه القاتل مخيفاً

أحاط الفجر به في وجل

بحشدٍ مترعج

حفروا في الجوار قبراً

والنساء سرن في طابور حزين

وقبّلوا القتيلين في عينيهما

وحده الأب الشيخ

جلس ينظر إلى الميتة

بحزن صامتٍ وعاجز

رفعوا الجثتين، حملوهما

وفي حضن الأرض البارد

أضجعوا الصّنوين الفتيين

نظر إليكو من بعيد

إلى الكل ...... وعندما غطوهما

بآخر حفنة من التراب

انحنى صامتاً ببطء

وانزلق من الصخرة إلى العشب

* * * *

عندها الشيخ مقترباً قال:

اهجرنا أيها الإنسان المتكبر!

نحن همجٌ، ليس لدينا قوانين

نحن لا نعذّب ولا نعاقب

لا حاجة لنا للدم والأنين

ولكن لا نريد أن نعيش مع قاتل

لستَ مولوداً للحياة الوحشة

تريد الحرية لنفسك فقط

سيكون مرعباً لنا صوتك:

نحن هيّابون وطيبو القلب

وأنت شرير وجسور - اتركنا

عذراً، ولترافقك السلامة."

* * * *

قال، ثم بحشدٍ صاخبٍ

نهض المخيّم الرحّال

من سهل المضجع المرعب

وقريباً يختفي الكل في مدى السهب

سوى عربة واحدة

مغطاة ببساط حقير

وقفت في حقل الموت

هناك أحياناً قبل الشتاء

في وقت الصباح الضبابي

عندما تغادر حقول القرية

الغرانق المتأخرة

وتتجه مع صيحةٍ إلى الجنوب

بعيداً، يبقى واحد حزين

مخروقاً برصاصة قاتلة

خافضً جناحاً جريحاً

هبط الليل، في العربة المظلمة

لم يشعل أحد النار

لم ينعس أحدٌ للنوم حتى الصباح

تحت السقف المشيَّد

الخاتمة

هكذا تنتعش الرؤى
في ذاكرتي الضبابية
بالقوة السحرية للأغاني
مرة عن الأيام الجميلة، ومرة عن الحزينة
في البلاد التي طويلاً طويلاً
لم يصمت بها دوي المعارك الرهيب
حيث أشار الروسي أن الحدود المقررة
ستزحف حتى اسطمبول
حيث تسرنا القديم ثنائي الرؤوس
ما زال يلهج بالمجد الغابر
قابلت في وسط السهوب
عند حدود المعسكرات القديمة
عربات الغجر المسالمين

بانطلاق الأطفال المتواضع
كثيراً ما تسكّعت في البراري
خلف حشودهم المتكاسلة
قاسمتهم طعامهم البسيط
وغفوتُ أمام نيرانهم
أحببت صخب أغانيهم
في مسيراتهم الطويلة
وردّدت طويلاً اسمَ
ماريولا، اللطيفة الحنون

* * * *

ولكن السعادة مفقودة حتى بينكم
يا أبناء الطبيعة التعساء
فتحت الخيام الممزقة
تعيش أحلامكم المعذبة
وظلالكم المترحلة في البراري
لم تُستنفذ من المصائب
ففي كل مكان أهوال محتومة
وليس من دافعٍ للقدر

المحتوى

هذا الكتاب

من النادر جداً أن يوجد مثقف في العالم لم يسمع بالشاعر الروسي الكبير الكسندر بوشكين، الذي اشتهر بملحمته التاريخية (يفغيني أو نيغين) و(رسلان وليودميلا) وكتب آلاف القصائد جمعت في عشر مجلدات)
كما عرف الشاعر بوشكين الذي احتفلت الأوساط المثقفة العالمية بعيد ميلاده المئتين هذه السنة /١٩٩٩/ بنزعته الى الحرية، ونقده اللاذع لسلطة الاستبداد
(القصائد الشرقية) كتاب هام وممتع للقراء

الناشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨

هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١

فاكس:٢٣١٧١٥٩ - ٥٦١٣٢٤١